

بقلم

عبد الرزاق نوفل

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م
بيروت - لبنان

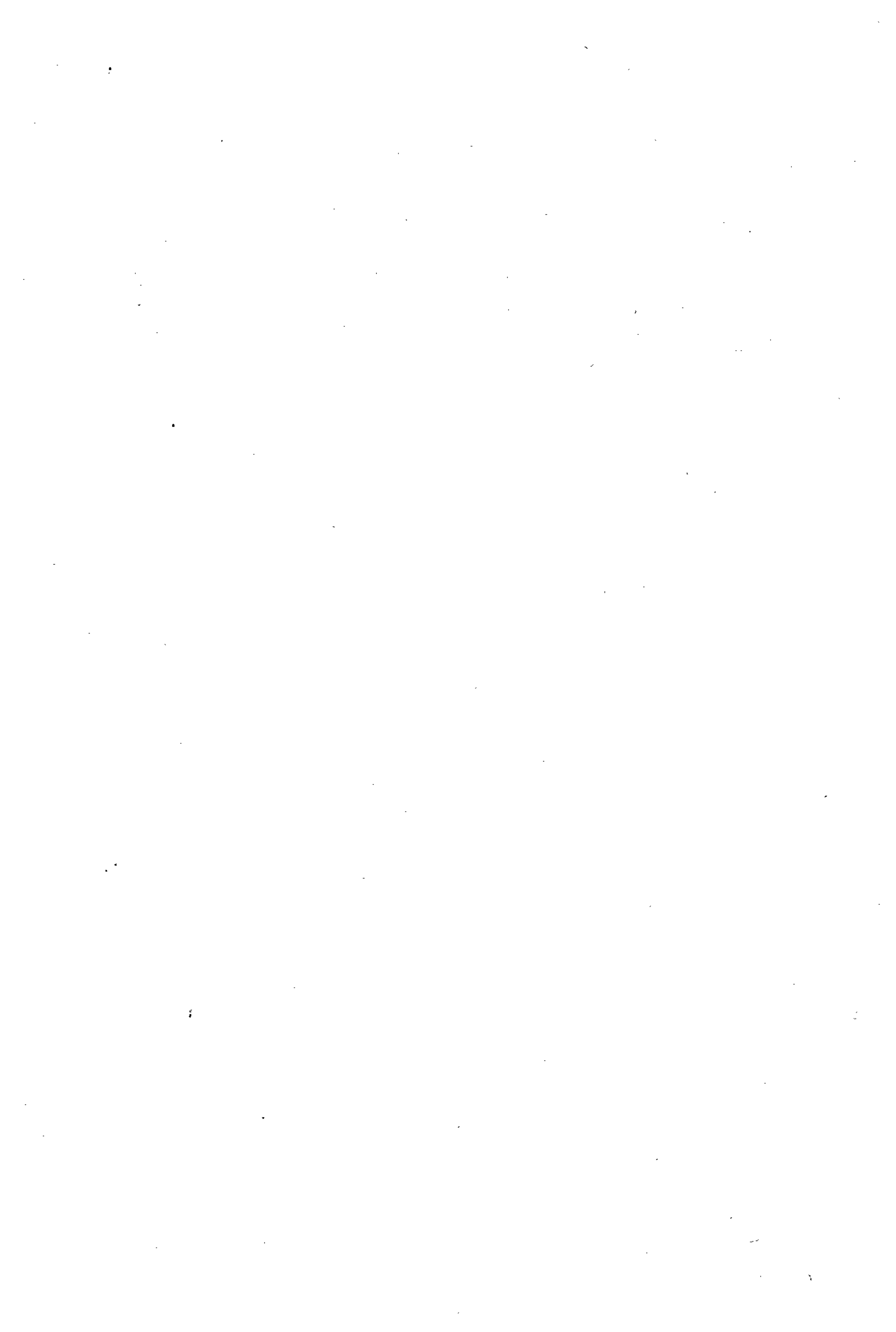

محمد
رسولا ونبيا



بسم الله الرحمن الرحيم

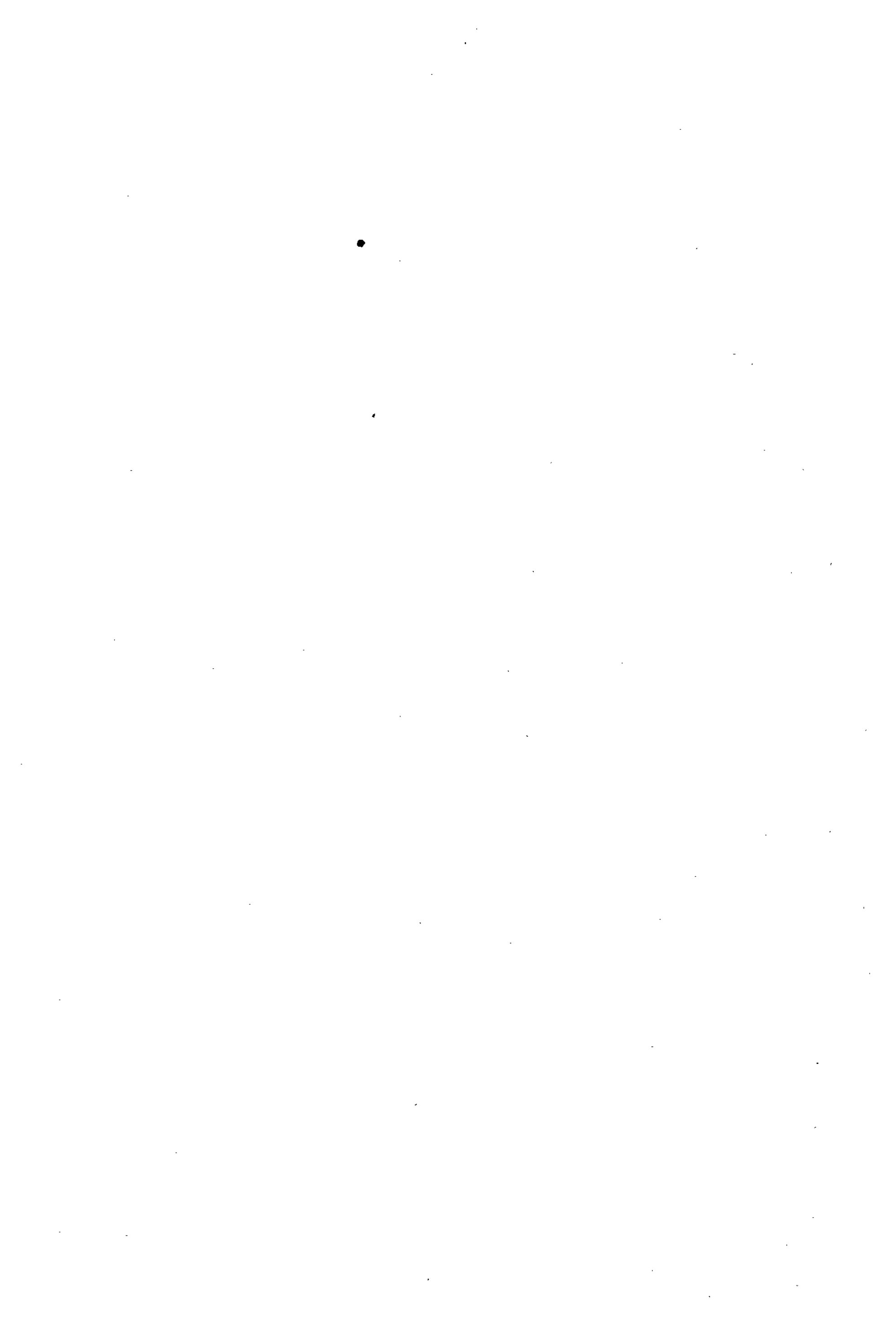
دعـــاء

اللهم إنك تحـــب عبدك ورســولك محمد بن عبد الله الصادق الأمين .
فقد اصطفيته دون البشر أجمعين .
ليكون خاتم الرسل والنبيين .
وأيدته بروح من عندك ونصرته النصر المبين .
وشهدت له وأنت خير الشاهدين .
بأنه لم يكن فظا غليظ القلب وكان على خلق عظيم .
وآتيته ما لم يؤت أحد من العالمين .
سبعاً من المثاني والقرآن العظيم .
لذلك فإني أحبه .
وحبي له إنما هو قربي إليك .
اللهم فاجمعني ومن يحبونه لك معه في رحمتك .
إنك أنت الرحمن الرحيم .



الإهـــداء

إلى صحابة سيدنا رسول الله .
بعض ما عرفوه عن إمامهم .
وشاهدوه في صاحبهم
هنيئاً لهم بما عرفوا وبما شاهدوا .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

(ومن يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأُولئِكَ مع الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقين والشُّهَدَاءِ والصالِحِينَ وحَسُن أُولئِكَ رفيقاً) . (سورة النساء ٦٩)

تصدر هذه الطبعة من كتاب (محمد رسولا نبياً) في الوقت الذي تصدر فيه طبعته باللغة الملايوية في سنغافورة وتتخذ إجراءات ترجمته إلى لغات أخرى . وتوالي طبعات الكتاب والترجمة له إنما يشير إلى نجاحه وإقبال القراء عليه . . إذ ما أجمل الحديث عن عبد الله الذي ميزه ربه بالخلق الحسن والأدب الجم والقلب الرحيم . . وما أفضل الرواية عن نبي الله الذي اختاره سبحانه وتعالى ليكون صاحب أكمل الرسالات وأتمها والمبعوث بآخر الأديان وأكملها . . فلا نبي بعده . . ولارسالة بعد رسالته . . وما أعظم القول عن رسول الله الذي اصطفاه جل شأنه ليكون رسوله الأمين إلى الناس أجمعين بل إلى كل العالمين . .

ولذلك فقد كتب عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عشرات الألوف من الكتب وتناوله بالبحث والدراسة ملايين الدارسين والبحاث وكل اتساع في آفاق البحث إنما يوضح في حياة رسول الله جديداً مما يجعل حياته صلى الله عليه وسلم كما كانت وكما ستظل موضع التكريم والتعظيم . . ويضيف أدلة جديدة على

صدق رسالته وحقيقة نبوته . . وكذلك اتجه إلى دراسة حياته وشخصه خصوم الإسلام وأعداء الأديان لعلهم يجدون فيها سبيلا إلى الطعن في رسالته ومهاجمة ما جاء به بعد أن فشلوا في بغيتهم عندما درسوا عقائد الدين وأغراضه وعبادات الإسلام وأهدافه . .

فما وجد هؤلاء الخصوم والأعداء في حياته إلا ما يؤكد لهم نقاء صفحاته . . وعظمة صفاته . . وسمو تصرفاته . . وأنه كانسان قد تميز في إنسانيته وكرسول لا شك في رسالته . . وكنبي لا جدل في نبوته . . وبذلك ما أكثر ما كتب عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وعندما أقدم هذه الصفحات القصيرة . . وهذه اللمحات القليلة . . فانما كعلامات في طريق البحث . . وإشارات إلى اتجاهات الدراسة إذ لا يمكن لأي صفحات أن تتسع لتستوعب كافة نواحي العظمة والجمال في حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولتكن كلماتي هذه تحية مني ومنك يا قارئي العزيز إليه . . وصلاة نبعثها في كل لحظة عليه . . نسأل الله جل شأنه أن يجمعنا معه في رحمته . . وأن يكتب لنا جميعاً اللقاء في جنته . . وأن نحيا ونموت على طاعته . .

(من يُطِعِ الرَّسُولَ فقد أَطَاعَ الله ومن تَوَلّى فَمَا أرسلنَاكَ عليهِم حفِيظاً) .

(سورة النساء ٨٠) « صدق الله العظيم »

عبد الرزاق نوفل
٨٠ شارع قصر العيني ــ القاهرة

مقدمة الطبعة الأولى

« ربَّنَا ءَامنَّا بِما أنزَلْتَ واتَّبعنَا الرَّسُولَ فَاكتُبنَا مع الشَّاهدين »

(سورة آل عمران – ٥٣)

الحمد لله الذي أرسل لعباده رسلا وأنبياء يبصرونهم بآياته، ويبشرون المؤمنين منهم برضوانه ، وينذرون الظالمين بشديد عذابه .

والحمد الله الذي وهب عباده عقولا واعية ، ونفوساً راضية، وقلوباً مطمئنة . . ولكن العباد يصرفون عقولهم عن الحق وهو واضح مبين ، ابتغاء الفتنة ، وما صرفهم عنه إلا الشيطان الذي يستجيبون له ليحق عليهم العـــذاب ، فتقلق نفوسهم ، وتضطرب قلوبهم ، وما يزالون يتخبطون في أودية الضلال ، حتى تختلط عليهم الأمور، وتتبلد فيهم الحواس، فلا يسمعون للصدق الواضح ، ولا يبصرون الحق الساطع .

فهذه السماوات وما فيها من نجوم وأفلاك ، يزيد عدد ما عرف منها على بضعة ملايين ، أما عدد ما لم يعرف بعد ، فلعله أكثر ، وما عرف من هذه النجوم تبلغ أحجامه قدراً يثير في

الإنسان العجب والدهشة ، وأي عجب وأي دهشة . . ويقول العلماء إن هذه الأحجام لا تعتبر شيئاً إذا ما قورنت بأحجام ما حجب عن البشر من نجوم وشموس وكواكب . . . هذه السماوات كيف قامت ؟ وهذه النجوم فيها كيف خلقت ؟ وكيف تحافظ السماوات على حركتها ولا تسقط بما فيها .

« اللهُ الذي رفَعَ السَّمَوَاتِ بِغيرِ عمد تَروْنَهَا ثُمَّ استَوى علَى العرْشِ وسخَّر الشَمْسِ والقَمر كُلٌّ يجْرِي لأَجلٍ مُسمّى ، يُدبِّرُ الأَمْر يُفَصِّلُ الآيتِ لَعلَّكُم بِلِقَاء ربِّكُمْ تُوقِنُون » .

وهذه الأرض وما عليها، من إنسان وحيوان وطائر ونبات. لكلٍّ أجهزته التي بها يحيا ، وإذا ما تدبرها الإنسان وجدها تجل عن الوصف وتتحدث عن قدرة الصانع ودقته ورحمته؛... أكل هذا خلق بغير خالق ؟ . . سبحانه

« ذَلِكُم اللهُ رَبُّكُم لاإله إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ ».

وكل إنسان يرى بعينيه هذه الآيات في كل لحظة وحين ، فهو يعيش فيها ، بل إنه هو نفسه آية بل آيات ، ولكن رحمة الله بعباده ، وهو أرحم الراحمين ، تتجلى في صورة من صورها بإرساله الرسل والأنبياء داعين إلى الله ، مذكرين الناس بآيات الله، ومبشرين برضوان الله ، ومنذرين من عذاب الله ، فلا حجة بعد ذلك . وصدق الله العظيم الذي يقول :

«رُسُلاً مُبشِّرِينَ وَمُنذِرين لِئلاَّ يكُونَ لِلنَّاسِ علَى الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ ، وكَانَ اللهُ عزِيزاً حكِيماً » .

وكذلك تتجلى رحمته سبحانه وتعالى بالعباد ، في عدد ما أرسله من الرسل والأنبياء للهداية ، فقد قيل : إنهم بضعة آلاف ، وقيل : إنهم أربعة وعشرون ألفاً ، ولكن الأمر المتفق عليه أنهم كثرة تؤكد رحمة الله الواسعة بعباده .

وهكذا تتابعت الرسالات والرسل ، كلما دعت الحاجة في قوم إلى الهداية ، حتى انتهت الرسالات بالرسالة الأخيرة التي أنزلها الله على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان بدعاً من الرسل وما اختلفت رسالته عن غيرها إلا في أنها أكملت ما سبق ، وأتمت ما نزل فمصدرها كلها الواحد الأحد ، سبحانه وتعالى ، وهدفها الإيمان بالله والبعث والحساب وما يتبع ذلك من ترك الشر والاتجاه إلى الخير ، فلما أراد الله أن يتم على العباد نعمته ويكتمل للبشرية دينها أرسل نبي الإسلام بآخر الأديان ليكون ديناً عاماً للبشر جميعاً ، وما أرسله لقومه كما أرسل بقي الرسل والنبيين ، ولكن للناس جميعاً ، إذ يقول عز من قائل :

« وما أَرْسلْنَاكَ إلا كافّةً للنّاسِ بشيراً ونَذيراً » ،
« قُلْ يأَيُّهَا النّاسُ إنّي رسُولُ اللهِ إلَيكُمْ جميعاً » .

لذلك وجب على المسلمين تبليغ هذه الدعوة إلى البلاد التي لم تبلغها أو بلغتها محرفة ، وما أيسر التبليغ ، إذ ما أكثر أوجه الإقناع بالإسلام .

لقد أوضح التقدم الفكري أن القرآن الكريم – معجزة نبي الإسلام – قد حوى من أوجه الإعجاز ما يجعله موضع الحجة لمن أراد أن ينشر هذا الدين بين أقوام تخالف لغتهم لغة القرآن ، فالعلم الحديث قد أوضح بعض أوجه تفسير القرآن الكريم بما

يثبت سبقه للعلوم ، كما سبق في التشريعات والمعاملات ،وفاق في البلاغة والبيان ، وصدق فيما تنبأ به من حوادث الزمان ، وقد وقعت بعد ما قال بها. كما أن العقائد والعبادات الإسلامية قدأثبت العلم أنهاشرعت لخير البشر كأفراد وجماعات ، الأمر الذي يؤكد أنها من الله سبحانه وتعالى :

وإن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتفيض بالآيات الناطقات على صدق دعوته ، وعلى أن رسالته إنما هي من الله العلي القدير .

ولما كان توفيق الله جل شأنه قد صادفني فأوضحت ما سبق بيانه إذ احتوى كتابي (الله والعلم الحديث) على الأدلة العلمية على وجود الله ، وأوضح كتابي (القرآن والعام الحديث) معجزة القرآن العلمية ، ويضم كتابي (الإسلام والعلم الحديث) بعض الآراء العلمية في عقائد الإسلام وتكاليفه ، كما صدر كتابي (المسلمون والعلم الحديث) ليؤكد أن الإسلام قد خلق في المسلمين وعياً علمياً وتقدماً فكرياً بحيث أنهم قادوا أكبر حركة علمية ما زال العالم يعترف بها . . ولم يكن الإسلام ليدعو إلى الاستكانة والتخاذل والتخلف عن ركب الحياة كما قد صوره بعض الخصوم ، فأوضحت في كتابي (الإسلام دين ودنيا) كيف أن الإسلام دعا إلى الدنيا دعوته إلى الدين .

لقد توجهت إلى الله سبحانه وتعالى أدعوه أن يلازمني توفيقه فأضع رسالة عن نبي الإسلام تحوي بعض الأدلة التاريخية الصادقة ،

والآيات العقلية الناطقة ، على رسالته ونبوته .

وإن هذه الرسالة الصغيرة (محمد رسولا نبياً) لتعتبر لمحة خاطفة عن حياة الرسول ، وكيف أنها دلالة على صدق دعوته ، وعلى أن رسالته من الله ، وأنه نبي الله المرسل بخاتم الأديان .

وقد اقتصرت على هذه العجالة ، فلا يتسع العمر – يقيناً – إذا ما أريد تدوين حياة الرسول كاملة . .

فإلى كل ضمير . . . مهما كان لون صاحبه أو جنسيته أو ديانته . . أقدم بعض الحق . .

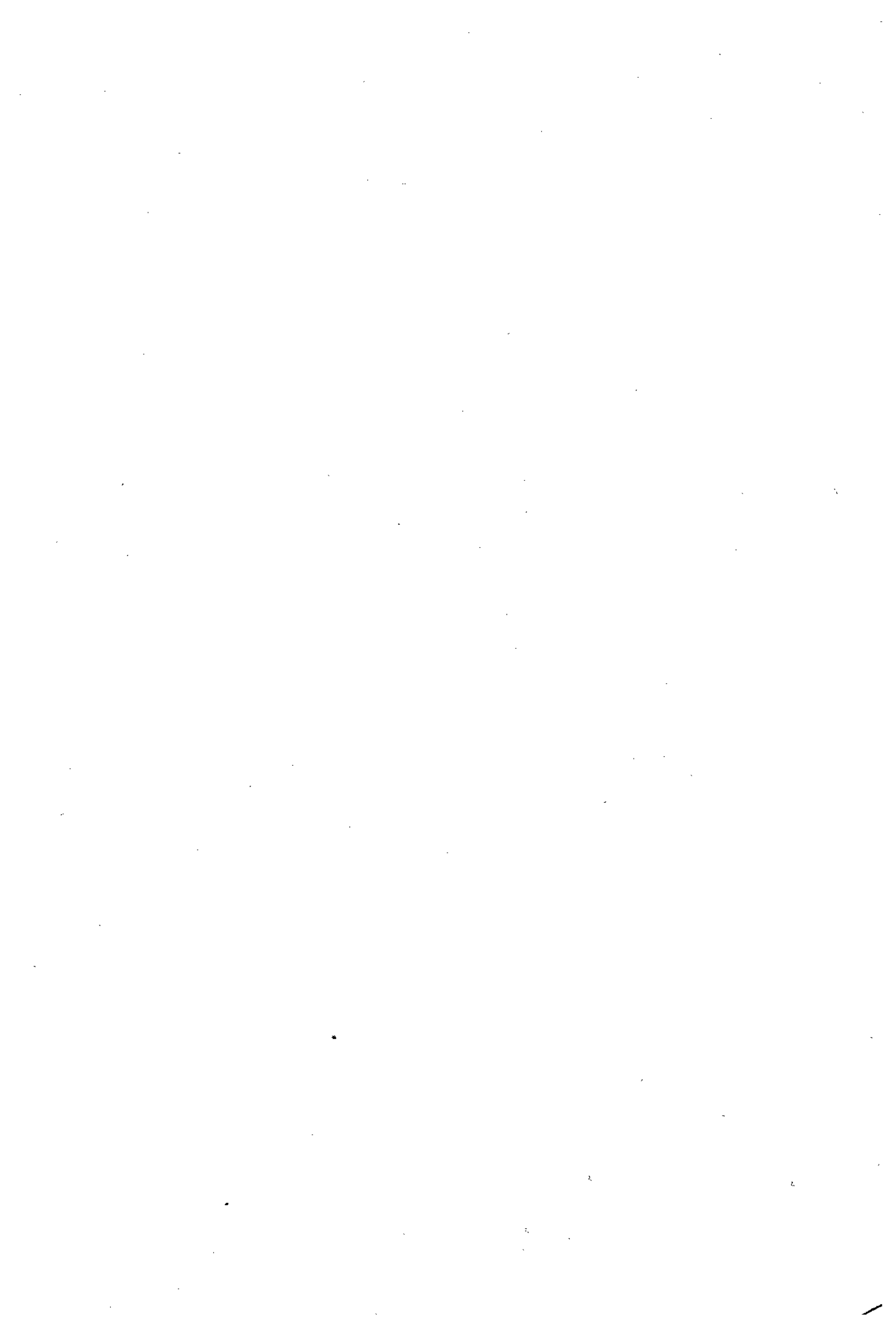
والله أدعو أن يكتب لنا من الرحمة قدر رحمته وليس قدر ما نستحق .

وأن يكتب لنا من الثواب جزاء ما نأمل وليس جزاء ما نعمل .

« ومن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بعْدِ ما تَبيَّنَ له الهدى ويتّبعْ غَير سبيلِ المؤْمنِين نولّهِ ما تَولّى ونصْلِهِ جهنّم وساءَتْ مصيراً »

صدق الله العظيم .

(سورة النساء – ١١٥)



بسم الله الرحمن الرحيم

« يأيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً »

صدق الله العظيم .

(سورة الأحزاب ٤٥ ــ ٤٦ ــ ٤٧)



محمد قبل الرسالة

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عليْكُمْ ولا أَدْراكُم بِهِ ،فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ،أفَلا تَعْقِلُون».

(سورة يونس – ١٦)



إن في حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة ، لآيات بينات تؤكد أن الله سبحانه وتعالى أعده ليكون خير البشر. كيف لا وقد اختاره جل شأنه ليكون رسوله إلى الناس جميعاً بأكمل رسالة وأتم دعوة وآخر الأديان .

ولقد أجمع الرواة والمؤرخون من خصوم الإسلام وأنصاره، على السواء ، على أن النبي كان منذ طفولته مختلفاً عن غيره تمام الاختلاف ، فلم تعرف عنه في حداثته سقطة ، حتى مما تشفع فيها حداثة السن ، ولم يأت بنزوة في شبابه، حتى الصغيرة التي تغتفر للشباب . وإذا تكررت الشهادة بحسن خلق إنسان ، أفلا يطمئن الناس له ؟ .. فكيف وقد اجتمعت الآراء على الشهادة لمحمد صلى الله عليه وسلم قبل دعوته وبعد رسالته ؟ وهل بعد شهادة الله يستمع إلى قول ؟ أو يبحث عن رأي ؟ أليس الله سبحانه وتعالى يشهد لنبيه وعبده فيقول عز من قائل عنه في سورة القلم :

« وإنَّكَ لَعلَى خُلُق عظِيم »

وإذا كان الإنسان في أعماله وتصرفاته إنما يعكس ما اكتسبه

من أدب ، لذلك يختار الناس لأولادهم المشهود لهم بحسن الدراية لمساعدتهم في تعليمهم وتأديبهم . فكيف بمحمد عليه الصلاة والسلام الذي سألوه عندما وجدوا من أدبه غير ما عهدوا في الناس وعرفوا عن البشر فيعترف قائلا : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وأدلة نبوة سيدنا رسول الله لا تظهر واضحة في حياته قبل الدعوة وبعدها فحسب ، إنما تمتد إلى ماض سحيق وأجيال سابقة ، جل من يعلم إلى أين تمتد . فالله سبحانه وتعالى أعلم متى شاءت إرادته أن تكون هداية البشر على يد محمد بن عبدالله الصادق الأمين الذي أرسله للناس كافة بخاتم الأديان وأكمل التشريعات وأتم العبادات .

وتقرر أحدث النظريات العلمية في الدراسات الإنسانية ، أن الإنسان لا يكتسب صفاته من أبويه فقط ، كما كان يظن إلى وقت قريب ، إنما يكتسبها من أجداده لأبويه وأجدادهما ، بل ويمتد الأثر إلى أجيال سحيقة . لذلك يهتم العلماء عند دراسة أخلاق شخص وصفاته أن يرجعوا بدراساتهم إلى أبعد من يمكنهم من أجداده السابقين .

ومما لا جدال فيه ولا خلاف عليه ، أن محمداً عليه الصلاة والسلام بضعة طاهرة من سلالة كريمة ، وأن آباءه وأجداده يجتمع فيهم المجد والشرف والكرم والعفة وكل محاسن الأخلاق ، وأن كل فرد من هؤلاء يكفي لأن يكون سبيل الشرف الذي

ينبعث في أجيال متعاقبة ، فكيف بمن يجتمع كل هؤلاء الآباء والأجداد ليكون حفيدهم ؟ . . وهل يمكن أن يكون ذلك لغير رسول الله ؟ . . أليس هو سيد الخلق وخير البشر ؟ . .

فوالده عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ابن أدد إلى الجد السادس والستين وهو قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. وهكذا تتلاقى الدوحتان الطاهرتان في أكرم أصل وأعرق مجد وأطهر جد لإنجاب أفضل الخلق وأعظم حفيد .

وما أعظم الجد خليل الله ، وما أطهر الحفيد رسول الله ، عليهما الصلاة والسلام .

فهل كانت رسالة محمد استجابة من الله سبحانه وتعالى لدعاء إبراهيم ؟ إذ قال :

« ربنَا واجْعلنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيّتِنَا أمّةً مُسْلِمةً لكَ وأَرِنَا مناسِكَنَا وتُبْ علَينَا إنّكَ أنتَ التوّابُ الرَّحِيمُ. ربّنَا وابعثْ فيهم رسُولاً مِنْهُمْ يتلُو علَيهِم ءَاياتِكَ ويُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكمَةَ ويُزَكّيهِمْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الحكِيمُ » .

أو ليس الله سبحانه وتعالى هو الذي أوحى إلى إبراهيم كما أوحى إلى غيره من النبيين إذ يقول جل شأنه :

« إنّا أوحينَا إليكَ كَما أَوحيْنَا إلى نُوحٍ والنّبِيِّينَ مِن بعدِهِ ، وأَوحينَا إلى إبراهِيم وإسماعِيلَ وإسْحق ويعقُوب والأَسباطِ وعِيسى وأَيُّوب ويُونُس وهرُونَ وسُلَيْمان وءَاتَينَا داوُد زَبُوراً » ؟

أو ليس إبراهيم خليل الله بقول الله سبحانه وتعالى :

« ومن أَحسنُ دِيناً مِمّن أَسلَم وجهَهُ لله وهُومُحسِنٌ واتّبع مِلّةَ إبراهيم حنِيفاً واتّخَذَ اللهُ إبراهِيم خليلاً » ؟ . .

ولا يلتقي سيدنا محمد بجده سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام برباط الدم فقط ، وإنما يتشابهان في الشكل أيضاً ، فقد روى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عرض عليّ الأنبياء فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة . ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة ابن مسعود. ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم (يعني نفسه) . ورأيت جبريل عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها دحية » . . وقيل إن هذا العرض كان ليلة الإسراء ببيت المقدس ، وفي رأي آخر أنه كان في المنام . أما شنوءة فقبيلة معروفة باليمن رجالها متوسطون بين الخفة والسمن طوال القامة .

ولا يقتصر الأمر على الشبه إنما تتكرر الصورة في حياة إبراهيم وولده وحياة محمد وآبائه في أكثر من مرة .

وتعتبر قريش التي يرجع إليها أصل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أشرف قبائل بلاد العرب قاطبة وأعلاها نسباً على وجه اليقين . وكان أول من تولى خدمة الكعبة من هذه القبيلة قصي بن كلاب أحد أجداد الرسول . ويحدثنا التاريخ أن ولايته لأمور مكة كانت فاتحة عهد جديد في هذه البلاد ، فقد جمع فيها كل ما كان قد تفرق منها من قبائل قريش ، وأقام لهم المنازل التي أسكنهم فيها ، وبنى إلى جوار الكعبة دار الندوة وجعلها مقراً لاجتماع القوم عامة ، فيها يتشاورون ، ويتحاكمون ويتعاقدون ، ويحتفلون ، فان لم ، فليتسامروا . وكان قصي أول من نادى بالتعاون على إطعام الحجيج وسقايتهم وإكرام وفادتهم ، إذ جمع القوم وقال لهم قوله المشهور : « يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه. وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » . ففرضت القبائل على نفسها قدراً معلوماً من الطعام والشراب على حسب قدرة كل قبيلة تقدمه إلى قصي الذي يوفر به أسباب راحة الحجاج ما وسعه إلى ذلك السبيل .

وجمع بذلك قصي كل شئون مكة ليتمكن من خدمة بيت الله وتوفير أسباب الأمن والراحة والحياة لضيوف بيت الله ، وظل يتوارث هذا الشرف أولاده وأحفاده ، فمنه إلى

عبد مناف إلى هاشم ثم إلى عبد المطلب الذي ما إن تولى شئون الكعبة حتى شغله أمر السقاية ، فقد كان توفير الماء الذي يكفي الحجاج أمراً عسيراً يستغرق من القبائل وقتاً يقرب من العام يطوفون فيه بالآبار التي تكون فيها ولو قلة من الماء ، فيجمعونه بمشقة ويحافظون عليه بعسر .

ظل عبد المطلب جد محمد يفكر ليلا ونهاراً كيف يوفر لزوار البيت الكريم ما يلزمهم من ماء ، وقد أصبحت الحاجة إليه ماسة ، فقد زاد الحجيج وقل الماء . . وأصبح ذلك هو كل ما يشغله ، ففي يومه يرسل الرجال بحثاً عن الآبار ، وفي ليله تداعبه أحلام اليقظة في صورة بئر دائمة الماء تكفي حاجات الحجاج ، فإذا ما غلبه النوم لا يرى في منامه إلا بئراً يحفرها أو مطراً منهمراً يحفظه إلى وقت الحاجة . ولكن كيف يستطيع أن يجمع المطر وهو قليل في كميته ونادر في سقوطه ؟ . . أما البئر التي يتمناها فترى أين يرجو أن تكون ؟ . . في بلد قريب؟ أم في مكان عن الكعبة غير بعيد ؟ . . ثم لا يلبث أن يزعجه ما يراه من استحالة تحقيق أمنيته . . ولكن أمله في الله سبحانه يجعله يلح في الدعاء لا سيما وقد تناهى إلى سمعه ما يحكى عن بئر نبعت تحت أقدام جده الأكبر إسماعيل ابن ابراهيم وهو ما زال طفلاً صغيراً ... فهل يتكرر الشبه بينهما مرّة أخرى ، وتظهر صورة لعهد إسماعيل في أيام عبد المطلب على هيئة بئر تروي أحفاده كما أروته وأروت أبناءه ؟ . . .

وذات ليلة يرى عبد المطلب رؤيا في منامه فيعتقد أنها كأحلامه كل ليلة التي تدور حول الماء ، فيقول : « إني لنائم

إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة . قلت : وما طيبة ؟ . فذهب عني . . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر برة . فقلت : ومـــا برة ؟ فذهب عني . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المضنونة . فقلت : وما المضنونة ؟ .. فذهب عني . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني ، فقال : احفر زمزم. قلت : وما زمزم ؟ . قال : لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل ». وعند ذلك استيقظ وهو لا يدري أتكون هذه كأحلامه السابقة ؟ ، ولكن ما بال هذا الهاتف وقد جاءه بالبشرى وتكررت زيارته ؟ . . أيكون ذلك أمرا من الله وبشرى منه سبحانه ؟ . . وهل طيبة هذه التي قالها الهاتف للطيبين والطيبات من أحفاد إبراهيم ؟ وبرة . . ألأنها فاضت للأبرار ؟ . . ومضنونة . . أليست هي وقفاً للحجاج ولا يقر بها غيرهم ، فهي تضن على غير الحجاج وسكان جوار بيت الله بالماء . . فهل يجد بئراً لا تنزف ، أي لا يفرغ ماؤهـــا أبداً ، ولا تذم ، أي لا يصبح ماؤها غوراً أبداً ؟ .

وخرج عبد المطلب وقد شغله هذا الهاتف ، وقد أشفق على نفسه من أن يقصه على غيره فيكون موضع الحديث الذي قد لا يتحقق . . . وذهب كعادته إلى بيت الله فوجد في المكان المخصص لذبـــح الأنعـــام التي تهدى إلى الـــكعبة لتوزيع لحمها على الفقراء وبين بقايا الفرث في بقعة والدم في بقعة أخرى ، غراباً يمتاز على غيره ببياض في إحدى رجليه ، ينقر الأرض

في هذا المكان الذي يسمى قرية النمل . . .

ما كان أسعد نفس عبد المطلب عندما رأى باليقين ما سمعه من الهاتف . . إذاً لقد استجاب الله الدعاء . . وسيتحقق الرجاء . . فليلب النداء .. ويحفر فيما حدده الهاتف من المكان . . .

وشاءت إرادة الله ألا يكون لأهل قريش مشاركة له في الأجر والثواب . فلم يستجب لنداء عبد المطلب منهم أحد . فكيف يحفرون في أرض يذبحون عليها القرابين وعليها أصنامهم؟ ولولا مكانة عبد المطلب فيهم ، وسيادته عليهم ، لمنعوه ، ولكنهم وقفوا يرقبونه وهو يضرب الأرض بمعوله ، ولا يعاونه إلا وحيده الحارث. ومضت ثلاثة أيام امتزجت الأرض فيها بعرق الحارث ودموع عبد المطلب وهو يضرب الأرض لعلها تستجيب ، وما كان ليحزنه إلا انصراف القوم عن مساعدته ، وقد وقف كل رجل منهم وحوله أولاده ، فهذا لديه ثلاثة أولاد وذلك خمسة وغيره سبعة ومنهم من عنده ثمانية رجال أو تسعة . . أما هو . . فولد واحد . . فكان إذا أخذه الجهد من العمل ووقف يلتقط أنفاسه يدعو الله : ألا تهبني يا رب عشرة من الولد وأذبح لك واحداً منهم قربي وقرباناً ؟ ؟

وفي نهاية اليوم الثالث ضرب بمعوله في صخر ضربة طويت معها الأجيال العديدة لتظهر صورة جده إسماعيل وقد نبع بئر زمزم تحت قدميه . . فقد نبع الماء تحت ضربة عبد المطلب.. إنها زمزم نفسها التي أغارت إحدى القبائل من سالف الزمان

على البلاد فردمتها . وأخرج عبد المطلب من الحفرة غزالتين من الذهب وأسيافاً ودروعاً كثيرة » فضربها باباً للكعبة وزينه بغزالتي الذهب . .

وتوفر الماء للحجاج من زمزم . . وشملت السعادة نفس عبد المطلب وإذا به يجد أن الدعاء قد سمعه الله ، فها هو ذا ينجب من الأولاد ويستمر على ذلك . . إلى أن أتم العشرة من الولد ، فكان لا بد له من الوفاء بالنذر . .

طلب عبد المطلب من أولاده الوفاء بنذره ، فتقدم العشرة كل يريد أن يستجيب لأبيه ويكون هوالقربان إلى الله ، فيحتار قلب الأب بينهم ، فكلهم ولده ، وكعادة العرب يذهب بهم إلى ضارب القداح بالكعبة ليقترع على من يحق عليه الوفاء .

وذهب مع عبد المطلب جمع غفير من الأهالي لا يدفعهم الفضول ، ولا الحرص على المجاملة ، ولكن خوفاً مما كانوا يتوقعون أن تصيبه القداح . ويضرب العراف ليتحقق خوفهم ، فقد خرجت القداح على عبدالله أصغر إخوته ، وهو من كان أهل قريش يخشون أن تصيبه القرعة .. وخرجت النساء والرجال شباناً وكباراً يقدمون أنفسهم فداء عبد الله ، فهو خير شباب قريش الذي جمع — كما قالوا — الطيبين : الخلق والخلقة ، عقل رزين وقلب رحيم ونفس مطمئنة على وجه جميل .

وعند بئر زمزم تتشابه الصورة مرة أخرى بصورة إبراهيم وولده .

فقد خرج عبد المطلب ومعه ولده الحبيب عبدالله ، واستعد

لنحره، تماماً كما حدث مع سيدنا إبراهيم، فتجمع الأهالي ومنعوه بالقوة خوفاً من أن يصبح ذلك من الأمور التي يعتادها العرب ، واستمهاوه حتى يحتكموا إلى عرافة يثرب التي ذاع أمرها واشتهر رأيها . وسافرت الوفود إلى يثرب فسألتهم العرافة عن الدية فيهم فقالوا : عشر من الإبل ، فطلبت منهم أن يضربوا القداح بين عبد الله والإبل العشر ، فإن خرجت على صاحبهم فعليهم أن يزيدوا من الإبل بمقدار الدية حتى تخرج القداح على الدية . وفرح القوم واطمأنت نفوسهم بفداء عبد الله . وضربت القداح فخرجت على عبد الله فزيدت الإبل عشراً حتى بلغت مائة خرجت القداح فيها على الإبل ، فسارع القوم إلى عبد المطلب ، وهو أمام الكعبة يدعو ربه ، يبشرونه برضاء ربه عليه ، ولكنه لم يطمئن حتى تضرب القداح وتخرج على الإبل ثلاث مرات . وقد كان ، ونحرت الإبل ليأكلها الفقراء والمحتاجون ، وتطرح كميات منها للطير والحيوان .

واحتفلت مكة بعيد الفداء كما لم تحتفل بعيد من قبل ، كيف لا وقد نجا بالفداء عبد الله الذي أحبه كل من رآه وسعى الى رؤيته كل من سمع عنه ، وكأن عبد المطلب أراد أن يتم أفراح مكة ويستكمل بهجة العيد ، فكما وجد أن كل ما تمناه تحقق ، اتجه إلى أمنية كثيراً ما طلب من الله تحقيقها ألا وهي أن يتزوج ابنه الحبيب عبد الله من آمنة ...

ومَن آمنة ؟ . . هي بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرةِ ، وكانت موضع إعجاب القوم جميعاً بلا استثناء . الأطفال يحبونها ولا يطيقون فراقها ، والشبان يعجبون

بها ويخدمونها ، والشابات لا يغادرن بيتها إلا لماما ، والرجال والنساء يتنافسون في التقرب إليها والتودد لها .

ويتساءل المؤرخون ماسر ذلك يا ترى ؟ . . هل لأنها كانت وهي تلعب مع الصغار حول الكعبة خفيفة الروح جذابة الحديث ؟ ، أم لأنها – وهي طفلة – كانت تسارع لمساعدة الشيوخ والعجزة عندما يطلبون السقاية من بئر زمزم ، مما يدل على ما في قلبها من رحمة وما في نفسها من خير ؟ ، أم لأنها امتازت في شبابها بما امتاز به عبد الله من جمال الخلق والخلقة .

وإذا نظرنا أين كانت بيوت بني زهرة أهل آمنة ، نجد أنها البيوت القريبة من الكعبة ، ولما كانت البيوت قد وزعها قصي بن كلاب على مشارف مكة بحيث تقرب وتبعد عن الكعبة بقدر منزلة أقوامها بين الناس ، نجد أن بني زهرة كانوا في الناس ممن يتمتعون بالشرف والعزة والكرامة والعفة والطهر والفضيلة . فهل يا ترى لأي سبب من ذلك كانت آمنة تعتبر سيدة أهل مكة ؟ أم لكل الأسباب مجتمعة ؟ . أم لسبب آخر ما كان الناس يعرفونه وقتها ولكنهم عرفوه بعد . . .

لقد تزوج عبدالله بآمنة لتكون أفضل أم وخير من ولدت النساء . . فقد أصبحت أم نبي الله ورسوله محمد بن عبدالله الصادق الأمين ، فهل يجتمع الفردان الكريمان ، وهما كما رأينا ، إلا لإنجاب ثمرة طاهرة تجمع كل ما في الآباء والأجداد من خلق وأمجاد ؟ . . و مما يؤكد أن الهدف من هذا الزواج

إنما كان فقط إنجاب نبي الله ، موت عبد الله بعد أن حملت آمنة به .

وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول الموافق عشرين أغسطس عام ٥٧٠ ميلادية ، وخرج به جده عبد المطلب في اليوم السابع لمولده وقد نحر الذبائح ابتهاجاً بمولد اليتيم ، ودخل به الكعبة وقال لقومه : « انظروا إلى ولد عبد الله ، ولقد سميته محمداً » . فاندهش القوم ، وسأاوه : ما هذا الاسم ؟ ولماذا رغبت عن أسماء أهلك ؟ فقال : « أردت أن يكون محموداً في السماء لله ، وفي الأرض لخلقه » .

نشأ عليه الصلاة والسلام رقيق الشعور مرهف الحس ، يفيض قلبه الكبير الذي أودعه الله في جسده البض النضير بكل معاني الرحمة والشفقة والحب والحنان . ويقول البعض الذي أدهشه ما كانت عليه نفسه من رحمة : إن ذلك لأن محمداً ولد يتيماً ، وأنه صادف من اليتم أقسى صوره ووصل إلى أبعد حدوده ، فقد مات والده ولم يزل في بطن أمه ، وخرجت به أمه وهو دون السادسة إلى المدينة لتزور به أخواله بيثرب ، وطافت به أمه دور الحي حتى وصات إلى قبر وقفت أمامه باكية منتحبة ، وتقاطرت الجموع وتوافدت النساء تحتضن الطفل الصغير الحبيب ابن الحبيب ، وعرف محمد أن هذا قبر والده الذي يضم أمله فبكى . .

ثم رجعت به أمه ، ولكن في منتصف الطريق أصابها

المرض وفاجأها الموت ودفنت في قرية الأبواء . ورجع الطفل وحيداً وحدة قاسية بلا أب أو أم ، ولقد ظل عليه الصلاة والسلام يفيض رقة وحناناً لأبيه وأمه حتى انتهى بـــه الأجل المحتوم .

اشتد حب جده عبد المطاب له ، فلم يكن يجلس إلا ويناديه ليجلس إلى جواره ، ولم يكن يلتفت إلا ليراه ، ومات عبد المطلب وكان سيدنا رسول الله صغيراً ، فقد سئل عليـــه الصلاة والسلام : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال : « نعم ، وأنا يومئذ ابن ثماني سنين » .

ولقد اختار عبد المطلب ولده أبا طالب ليكفل محمداً ، وهو ليس أكثر أولاد عبد المطلب مالا أو أقلهم عيالا ، وكان اختياراً موفقاً أراده الله سبحانه ، فقد وجد الرسول عند عمه نعم المأوى وخالص الحب ، وقد قال الله لرسوله في ذلك :

« أَلَم يَجِدْكَ يَتِيماً فَـــآوَى » .

وكانت حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في طفولته مبعث العجب والإعجاب ، فلم ينشأ كغيره من الأطفال ، لم تعرف عنه صغيرة، ولم يأت بشائبة أو شائنة ، لا يشتهي ما مع غيره ، ولا يطلب غير ما في يده ، ولا يندفع كالأطفال إذا جاء الطعام ، ولا يبحث عنه إذا غاب . ولقد رأى عمـه أبو طالب أن أولاده يقبلون على الأكل يتخاطفونه ويختارون أطيبه في لهفة وعجلة بينما يجلس العف هادئاً ساكناً إذا وصل

إلى يده ما يأكله أكل ، وإلا قام راضياً قانعاً ، الأمر الذي بسببه حرص أبو طالب أن يحجز لمحمد أكله وحده ، ويخصه دون أولاده بما يجده طيباً . . وفي ذلك تقول أم أيمن : « ما رأيت محمداً صلى الله عليه وسلم شاكياً صغيراً ولا كبيراً جوعاً ولا عطشاً . كان يغدو فيشرب من زمزم فأعرض عليه الغذاء فيقول لا أريده فأنا شبعان » .

ولقد عصمه الله من كل سوء وأبعده عن الزلل ، فلم يشرب خمراً ، وقد خالف بذلك عادة العرب ، ولم يله كما كان يفعل الشباب ، بل إنه ذهب مرتين وهو يرعى الغنم ليسمع موسيقى في مكة فلما شارفها ضرب الله على أذنه فنام حتى الصباح .

ولقد اشتهر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة بالأمانة المطلقة . . في القول والعمل والخلق ، فكان يلقب بالأمين ، وقد عرفه الناس جميعاً بذلك اللقب حتى إنه لم يكن هناك ما يدعو إذا قيل الأمين أن يذكر بعده اسمه ، وكان هذا هو السبب الذي من أجله استأجرته خديجة لتجارتها ، وقد كانت هذه التجارة تعدل تجارة قريش بأسرها ، لذلك فهي موضع طلب الأشراف ومحط أنظار الكرام يتنافس العرب في الخروج بها ، فقد كانت تخرج ببكرين من الإبل ، واختارت خديجة محمداً بعد أن سمعت بأمانته واتفق رأي القوم على أنه أفضلهم خلقاً . . وأكملهم عقلا . . فأخرجته على

تجارتها لا ببكرين كما كانت تفعل ولكن بأربعة أبكار .

ومما عرف به عليه الصلاة والسلام منذ نشأته : الصدق ، وكان (الصادق) من ضمن ما أطلقه عليه العرب من أسماء . فقد عهد فيه العرب منذ طفولته غير ما عهدوا ، فما بالغ في أمر وما صور غير الواقع ، فاحتارت أقوامه في ذلك . وقد بلغ من الصدق مبلغاً جعل كل ما يقوله يكون قولا قاطعاً لا يحتاج إلى دليل أو تأكيد ، وليس أدل على ما اشتهر به من صدق من أنه لما نادى قريشاً عند الصفا للدعوة بدأهم بقوله المشهور : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسطح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تصدقوني ؟ » فأجابوه : « نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط » .

ومما تميز به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان كل ما فيه يجعله متميزاً — رجاحة العقل وسلامة التفكير ، فمنذ طفولته اشتهر بالمنطق السليم والرأي السديد ، فكان قومه يستشيرونه فيما يصعب عليهم من أمورهم وهو أقلهم عمراً ، ويستمعون إلى رأيه وهو أصغرهم سناً .

خرج مع عمه أبي طالب في تجارته يعاونه ويساعده وهو في الثانية عشرة من عمره ، وشارك في حرب الفجار التي قامت بين قريش وهوازن ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكان له الرأي الأول عندما اجتمع رجال بني هاشم وبني عبد المطلب وبني أسد وبني زهرة وبني تيم يتعاهدون على نصرة المظلوم ورد حقه مهما كان مركز ظالمه وضعف قبيلة المظلوم ،

وعقد لذلك حلف الفضول ، ولم يكن عمره صلى الله عليه وسلم يزيد على العشرين عاماً .

ولعل فيما ارتآه عند ما اشتد الخلاف بين قبائل قريش في شأن الحجر الأسود ، الدليل الذي لا يقام بعده دليل على سعة أفقه وحسن تصرفه وسديد رأيه . ففي عام ٦٠٥ ميلادية استقر رأي قريش على تجديد بناء الكعبة بعد أن أصابها السيل فصدع بعض جوانبها ، وجمعت القبائل الأحجار والأخشاب بعد أن تحققت من طهارة مصدرها وبعدها عن أي شبهة أو حرام ، إذ قر رأيهم ألا يدخل في بنائها من الكسب إلا الطيب ، فلا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع بربا ولا مظلمة أحد من الناس . وهدم سطح البناء إلى أن وصل الهدم إلى الأساس الذي وضعه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وبدأ البناء بأفراد انتخبوا من الصفوة المختارة ممن عرفوا بالأخلاق الطيبة والقلوب الرحيمة. وما إن بلغ البنيان موضع الركن حتى اختصمت القبائل واختلف الأفراد : أيهم يضع الحجر الأسود بيده ؟ . . فإنه شرف له ولقبيلته أي شرف . . وكيف يختار أطهر الرجال وأحسن الأفراد ليحمله ؟ . .

اشتد الخلاف حتى بدت في الجو نذر الحرب الأهلية ، وليس أدل على مبلغ ما كانت عليه الحالة من سوء ، من تحالف بني عبد الدار وبني عدي على ألا يكون الشرف إلا من نصيبهم ويختار لذلك أفضل رجالهم ، وتوكيداً للحلف قدم كل فرد منهم بعض دمه من إصابة افتعلها في نفسه حتى امتلأت جفنة بالدم

وضعوا أيديهم فيها ، توكيداً لعهدهم وشهادة على صدق وعدهم ، وسمي هذا الحلف : « لعقة الدم » .

ودام اجتماع القبائل خمس ليال ولكن بدون جدوى ، فأصبح ولا مفر من الحرب ، إلى أن اقترح أبو أمية بن المغيرة ، وكان أكبر أهل قريش سناً ، اقتراحه المعروف إذ قال : « يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من هذا الباب ، يقضي بينكم فيه » . فوافق البعض وصمت البعض حتى وجدوا أول من دخل سيدنا رسول الله فصاحوا جميعا مستبشرين : « هذا الأمين ، رضينا بحكمه » . وما إن أخبروه بالأمر حتى طلب ثوباً ووضع بيده الشريفة الحجر عليه ، وطلب من كبار القبائل أن يأخذوا بأطراف الثوب ، وبذلك اشتركت القبائل كلها في رفع الحجر الأسود إلى أن وصل إلى مكان البناء، فأخذه بيده الكريمة ووضعه في الركن وبنى عليه . . . لقد رغب القوم ألا يقارب البناء إلا الأطهار ، واختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود إذ أرادوا أن يكون ذلك أفضلهم ، فهل كان هناك أطهر من محمد ليقوم بالبناء ؟ . . أليس الله سبحانه وتعالى هو الذي اختار من يضع الحجر الأسود مكانه ؟ . . ألم تطو عشرات القرون في تلك اللحظة المباركة لنرى في محمد وقد وقف يرفع القواعد من البيت ويضع الحجر في مكانه ، صورة لجده إبراهيم وقد وقف في نفس المكان لنفس الغرض من آلاف السنين ، إذ يقول الله تعالى :

« وإذْ يرفَعُ إبْراهِيمُ القَواعِدَ من البيتِ وإسْماعِيلُ

ربَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العلِيمُ » .

وهكذا تتشابه الصورة مرة أخرى بين إبراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلاة وأتم السلام .

ولا يستطيع أي قلم مهما أوتي الدقة والفصاحة أن يبين إلا بعض الحق عن رسول الله إذا ما درس حياته قبل الرسالة ، فقد جمع من الأخلاق أفضلها على سبيل القطع ، وعرف عنه ما جعله موضع احترام العرب وإجلال القبائل والعشائر ، ولا جدال بين المؤرخين في ذلك كما يقول العلامة البحراني في كتابه الذي أصدره في مطلع القرن الثالث عشر الهجري باللغة الهندية في بمباي ما ترجمته : « اتفق أهل السير والتواريخ على أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ في قومه عاقلا لبيباً وكاملا أديباً ، ملازماً لحسن السمت والوقار مصيباً ، وأنه لم يعثر أحد من أهله منه على طفولية ولا صبوة حتى بلغ مبلغ الرجال . وبعد بلوغه ذلك الحد شاع بين قريش صدقه وأمانته ، واشتهر فيما بينهم عدله واستقامته ، وتحققت عندهم عفته وصيانته ، وانتشر في مكة وما حولها طهارته من النقص ونزاهته ، فعظم عند قومه قدره ، وظهر بينهم مجده وفخره ، حتى طفقوا يسمونه الصادق الأمين لما ثبت لديهم له من الصدق المستبين ، وتوطد له فيهم من الحلم الرزين ، فكانت قريش ومن يرد مكة من العرب يودعونه أموالهم وذخائرهم ثقة به واعتماداً على ما يرون من حسن سيرته وصحة مذهبه في الوفاء ، وسلامة طريقته . وما زالت هذه صفته عندهم إلى أن بعثه الله إليهم ،

فكانوا يجادلونه في الدين ويأتمنونه على المال الخطير الثمين » .

وما أصدق خديجة في قولها له عند زواجه منها : « يا بن العم ، لقد رغبت فيك لقرابتك ومكانتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » .

هذا بالنسبة لخلق محمد عليه الصلاة والسلام وعقله وجسده ، أما عقيدته فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحررها من الشرك ويطهرها من الدنس ، فلم يكتب على قلبه الزيغ ولم يصبه بفتنة فنشأ مخالفاً لقومه ، لم يتمسح بصنم أو يتقرب لوثن كما يفعل الناس ، حتى غضب عليه الأقربون من أهله ، وخافوا عليه الشر يصيبه من ذلك ، فيقول لهم : « إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه » . . ألم يكن الله سبحانه وتعالى يعده إعداداً خاصاً بذلك ؟ . .

كان يعجب من قومه : كيف يعتقدون في حجر صوروه بأيديهم ثم يتقدمون إليه ويتمسحون به ؟ وهل لهذه الأصنام التي أقاموها أيد تعطي بها أو أرجل تسعى عليها أو عيون تبصر بها ؟ أليست إذا مالت سقطت ، وإذا وقعت تحطمت ؟ . . فهي لذلك لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فكيف يظنون أنها تملك لهم خيراً أو شراً ؟ يا لضلال قومه ، فقد عميت قلوبهم وحجبت أبصارهم وتعطل إحساسهم .

كان ينظر إلى السماء الصافية ، وما فيها من كواكب ونجوم ، وإلى الصحراء الشاسعة و ما فيها من أودية وجبال ..

كيف رفعت السماء وكيف بسطت الأرض ؟

هذه الشمس تشرق كل يوم في موعد لا تتعداه ، وهذا القمر يمر في مدار لا يتجاوزه ، والطير سابح في الفضاء ، والإبل تضرب في الصحراء ، والمطر ينهمر من السماء ، فينبت به الكلأ والنبات . . أمصادفة وجد كل هذا ؟ . . وهل يسير ذلك كيفما كان . . أم وفقاً لنظام وتدبير وإحكام ؟ . . .

ويلتقي مرة أخرى إبراهيم أبو الأنبياء بمحمد خاتم الأنبياء عليهما الصلاة والسلام في صورة واحدة ذات اتجاه واحد . . النظر في هذا الكون والتماس الحقيقة الكبرى التي يعتبر كل ما في الكون أحد مظاهرها ودليل وجودها .

وشعر محمد صلى الله عليه وسلم بأن هذا التأمل يبعده عن قومه بعداً شاسعاً . . وما أبعد الفرق بينهما . . فالحق والباطل لا يتلاقيان ، والإيمان والكفر لا يجتمعان .

وما كان أسعده حينما يخلو إلى نفسه بعيداً عن الناس ينظر فيما حوله ، كان يستولي عليه الاطمئنان وهو وحده بعكس ما كان عليه قومه ، لا يسيرون في الصحراء إلا في جماعة ، وإذا انفرد أحدهم أحس الدهشة والخوف . وهكذا أحب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلاء . . ففيه تسبح نفسه إلى حيث لا يعرف ، إلى أن اتخذ مكاناً لخلوته بأعلى جبل حراء شمال شرقي مكة ، في مكان بعيد عن الناس ، خال من كل أسباب الحياة ، حيث وجد به غاراً قد دخل في الجبل يكاد لا يتسع إلا له ، وقد كونت صخرتان كبيرتان ما يشبه المدخل .

وفي الغار يجد الإنسان نفسه وقد انقطع عن الحياة أو يكاد .

دخله عليه الصلاة والسلام متأملا مفكراً متعبداً لمن خلق كل ما حوله في الكون . واعتاد أن ينتزع نفسه من شئون الحياة مرة كل عام يأخذ معه القليل من الزاد والماء ، ويعتكف في هذا الغار لمدة شهر من الزمان هو شهر رمضان .

إن الإنسان يتكون من روح وجسد ، أما الروح فهي نفخة من الله ، وأما الجسد فحفنة من تراب ، فاذا ساد الجسد الروح اقترب الإنسان من التراب ، وإذا ما سادت الروح قرب صاحبها من السماء .

وها هو ذا محمد عليه الصلاة والسلام قد طهر الله جسده من كل دنس ، وأبعد عن قلبه كل ريب ، وسمت روحه فوق الآخرين ، وها هو ذا يعتكف بعيداً لا يهمه غذاء جسده ، إنما روحه التي صفت ونمت ، وبعد سنوات أمكنها أن تحلق فترى في منامها الرؤيا الصادقة التي يحملها الصباح حقيقة واقعة.

ودامت الرؤيا الصادقة ، وكانت البداية لطريق الحق والنور ، إلى ليلة مباركة في العشر الأواخر من تحنثه في شهر رمضان عام ٦١٠ ميلادية حينما جاءه ملك في يده صحيفة فقال له : « اقرأ » ، فأجاب : « ما أقرأ » ، فكررها ثلاثاً ثم قال :

« اقرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ مِنْ علقٍ . اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ . الّذِي علَّمَ بِالقلمِ . علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يعْلَمْ » .

فقرأها وكأنها قد نقشت على صفحة قلبه .

وكان ذلك جبريل قد أتاه بأول الذكر الحكيم ، والقرآن الكريم ، تنزيلا ورحمة من رب العرش العظيم .

وكانت النبوة والرسالة لخاتم الرسل والنبيين سيد الخلق محمد بن عبدالله الصادق الأمين .

هذه صورة عاجلة للصفوة المختارة من آباء وأجداد تواريخهم معروفة وسيرتهم العطرة محفوظة ، ويمتد التاريخ بهم إلى الجد الرابع والستين لنجد خليل الله سيدنا إبراهيم الذي يدل اسمه على ما كان عليه ، فمعنى إبراهيم « الأب الرحيم » .

ولا شك في صحة هذه الأنساب وما روي عن حفظها ، فإن العرب قوم كانوا لا يهتمون بشيء قدر اهتمامهم بأنسابهم وأصولهم ، هذه الأنساب التي يحفظونها ويجعلونها موضع الفخر والتفاخر في ندواتهم وأسواقهم وأعيادهم .

هذه ومضة من حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة، فهل توحي إلا بأن صاحبها لا بد أن يكون خير البشر وسيد الخلق ؟ .

وهل عرف التاريخ من كان على مثل ما كان عليه ؟

وهل صادف علماء التربية ورواد الدراسات الإنسانية في تاريخ البشرية الطويل من جمع في أصوله بعض هذه الأمجاد ؟ وهل اجتمع لبشر مثل بعض هؤلاء الآباء ، وهذه الصفات ؟

فكيف بمن اجتمع له كل هؤلاء الأجداد ، وتلاقت فيه كل هذه المميزات ، وتفرد عن الخلق بكل هذه الصفات ؟ .

أفلا يكون بذلك رسولا نبياً ؟ .

محمد بعد الرسالة

« لَقَدْ كانَ لَكُم في رسُولِ اللهِ أُسوةٌ حسنَةٌ لمنْ كانَ يرجُو الله واليوم الآخِرِ وذَكَرَ الله كَثِيراً » .

(سورة الأحزاب — ٢١)



غادر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الغار وهو يعجب بما رأى وسمع ، أيكون حلماً ؟ أمهاتفاً؟ إن فيما تلي عليه لرداً أبلغ رد على ما كان يسأل عنه ، فالله هو الخالق يقيناً ، وهو الأكرم قطعاً ، ولكن كيف خلق الإنسان من علق ؟ ؟ . . بل ما هو العلق ؟ . . ولكن الآية الشريفة تجيبه :

« علّم الإنْسانَ ما لَمْ يعْلَمْ » .

إذاً ليس ما رآه إلا حقّا ، وليس ما سمعه إلا صدقاً .

وما إن توسط الجبل ، وهو في طريقه إلى داره ، حتى سمع صوتاً يناديه ، فبحث عن المنادي فاذا به يرى ما رآه في الغار على صورة رجل قد ملأ السماء كلها إلى نهاية الأفق ، وأينما اتجه بوجهه يجده أمامه يناديه ، وما كان أجمل المنادي . وما كان أعذب النداء . ولكن فزعه لم يفارقه فليس ما رآه مألوفا وما سمعه معهودا ، كما أن المنادي عندما كان يقرئه تولته رعشة وأصابته رعدة برد منها جسده وتصبب عرقه .

وتوالى نزول الوحي آيات من الذكر الحكيم والقرآن العظيم إلى أن تم التنزيل في حجة الوداع وهى آخر حجة للنبي ، ونزلت

فيها الآية الشريفة :

« اليوم أكملتُ لكُمْ دينكُمْ وأتممتُ عليكُمْ نعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دينا » .

وآمنت زوجته خديجة وآمن بعدها علي بن أبي طالب وزيد ابن حارثة وهؤلاء من أسرته، ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة أحد كبار تجار قريش ، تعرفه القبائل وقد طبقت شهرته الآفاق ، فهو علاوة على ثرائه كان يعرف مجلسه بالعلم والوقار ، ودعا بإسلامه من وثق بهم من قومه ، فأسلم عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ، وتوالى إسلام الناس ،

أغضب ذلك قبائل قريش ، فقد خافوا على معتقداتهم ، وبدأوا لذلك إيذاء من أسلم ، ونصح الرسول بأن يهاجر المسلمون فراراً من العذاب الذي بلغ حد القتل والذبح والتنكيل ، وهاجر إلى الحبشة ثمانون رجلا غير نسائهم وأطفالهم ، وكانت هذه أول هجرة في الإسلام .

اشتد أذى قريش للرسول ومن معه ، فقد توفي عمه أبو طالب وكان شيخاً كبيراً بين قومه ، ثم توفيت خديجة زوجته وكانت له سنداً في دعوته ، غير أن الأمر الذي أثار القوم أكثر من ذلك ما عرف من أن يثرب وبها كثرة من يهود قد ذاع فيها خبر الدعوة ، وأن عدداً من أهلها قد آمن بالنبي بعد أن تبين لهم أن أحبارهم وكهانهم كانوا يعرفون من كتبهم صفات النبي

المرتقب وقد طابقت محمداً عايه الصلاة والسلام . فهاجر إليهـا المسلمون جماعات وفرادى ، ولم يبق بمكة إلا النبي ونفر مـن صحابته .

وخشيت قريش أن يهاجر الرسول إلى يثرب حيث أصبح له فيها من الأتباع والأنصار من يخشى منهم ، فكيف لو ذهب صاحبهم إليهم ؟

اجتمع رؤساء العشائر وزعماء القبائل في دار الندوة يتشاورن في أمرهم وأمره ، وتعددت مقترحاتهم وتنوعت آراؤهم ، ولكنها اتفقت حول رأي واحد هو الخلاص من محمد صلى الله عليه وسلم ، وقر قرارهم على أن يخرج من كل قبيلة شاب من أشرف أفرادها وأقوى شبانها ، ثم يعطى لكل شاب سيف صارم، ثم إنهم ليضربونه جميعاً ضربة واحدة فيتفرق دم الرسول في القبائل ، وتنتهي في نظرهم بذلك تلك الشدة التي باتوا يعيشون فيها مضطربة أعصابهم مبلبلة أفكارهم . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي أرسله بدين الحق ليظهره على الناس جميعا حفظه مـن تدبيرهم ، فخرج ومعه أبو بكر في هجرة إلى يثرب أمام جيوش الكفر الذين أعمى الضلال قلوبهم فلم تبصر عيونهم .

وخرجت المدينة تستقبل النبي في احتفال لم تشهده ، بل إن التاريخ لم يعهده ، فقد ظل الأهالي ما يزيد على خمسة أيام تحت حرارة الشمس ينتظرون القادم الصادق الأمين ، ودخلها على بركة الله وفي رعايته في ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع

الأول للسنة الرابعة عشرة من البعثة ، بعد أن قضاها في أشد الجهاد في مكة .

وما إن استقر بالنبي المقام في المدينة ، ولا عمل له إلا الدعوة ينشرها بين الناس ويقيم المساجـد لله ويؤاخي بين الأنصـار والمهاجرين ، حتى علم بأن قريشاً قد أرسلت فرسانها وجهزت جيوشها ، فإنها رأت أن لا مفر من الحرب . حاول الرسول جاهداً أن يتفادى القتال ، ولكن المسلمين في خطر ، وقد بدأت قريش الهجوم ، فكان لا بد من الدفاع واضطر الرسول إلى القتال وغلبت الفئة القليلة المؤمنة الفئة الكثيرة الضالة ، وبالرغم من ذلك يطلب النبي أن يسمح له بقضاء العمرة مع المسلمين بلا قتال أو حرب . وما إن نقضت قريش الاتفاق بعد أن تم حتى أراد الله أن يفتح المسلمون مكة ، فدخلها الرسول في العشرين من رمضان في السنة الثامنة من الهجرة أي في يناير عام ٦٣٠ ميلادية ، وصعد بلال فوق الكعبة يؤذن بصوته الذي هز أرجاء مكة : « الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » ، واضطر النبي بعد عشرين يوماً للخروج لقتال بعض القبائل التي تجمعت في أحد الأودية لتأخذ المسلمين على غرة ، وانتصر عليهم الرسول كما انتصر من قبل ، وذهب إلى المدينة

حيث ظلت تفد عليه الوفود من كافة أنحاء الجزيرة تعلن دخولها الإسلام ، وكان ذلك في السنة العاشرة للهجرة ، وقد سمي هذا العام بعام الوفود .

وخرج عليه الصلاة والسلام بعد ذلك ليعقد أول مؤتمر عام للمسلمين ، فاجتمع في الحج معه حوالي المائة والعشرين ألفاً من المسلمين ، وحج معهم حجة الوداع ، ونزلت آخر آيات القرآن فكان ذلك إيذاناً بانتهاء حياة النبي حيث مرض بعدها وقبض إلى الرفيق الأعلى من الجنة ضحى يوم الاثنين الحزين ١٢ من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، صلى الله عليه وسلم .

وهكذا جاهد الرسول لنشر الإسلام ما وسعه الجهد ، وظل ثلاثة وعشرين عاماً يدعو إلى عبادة الله ، قضى منها ثلاثة عشر في مكة وعشرة في المدينة ، ولم تكن أسلحته في هذا الجهاد إلا الموعظة الحسنة ، والمنطق السليم ، والحجة القاطعة ، ولم يشهر حرباً قط ، ولم يشن هجوماً إطلاقاً ، ولم يمسك سيفاً إلا لرد اعتداء تكرر أو حماية للمسلمين من خطر استفحل . وعاش النبي هذه الفترة من حياته في ظروف مختلفة وأحوال متباينة ، من تكذيب به وهجوم عليه ، إلى إيمان مطلق وتأييد كامل ، ومن وحدة قاسية إلى جموع حاشدة ، فقد بدأ الدعوة وحيداً وتركها يوم وفاته أمانة مع مئات الألوف من المسلمين ، ثم إنه يخرج من مكة في أول الدعوة مهاجراً وليس معه إلا أبو بكر فيدخلها بعد ذلك تحيط به الكتيبة الخضراء وفي

جيش ظافر يبلغ عدده عشرة آلاف من فرسان المسلمين . ولقد اجتمعت قبائل قريش في دار الندوة يوماً واتفقت على قتله قبل هجرته ، ثم تجتمع مرة أخرى لتتشاور كيف تخرج لاستقباله وترحب به .

فيا ترى كيف كان نبي الله في الحالتين ؟ وكيف كانت حياته ؟ في أيام العسرة ثم في أيام النصرة ؟ إن في حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة آيات بينات وأدلة قاطعة على أنه نبي مرسل من الله سبحانه وتعالى .

إن أول شهادة لما كانت عليه أخلاق الرسول بعد الرسالة تضعها زوجته خديجة يوم أن عاد من الغار يرتعد خائفا ، فبعد أن قص عليها الخبر قالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » ، وليس أقرب للإنسان من زوجته التي تعرف عنه ما قد لا يعرفه غيرها ، وها هي ذي بعد خمسة عشر عاماً من حياتها معه تقرر في كلمة صغيرة أنه جمع كل محاسن الأخلاق ، فهل هناك بر أفضل من صلة الرحم ؟ أوصفة تعادل الصدق ؟ أو خير يوازي إعانة الضيف ؟

وسئلت زوجته عائشة عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن » . فهل جمع غير القرآن مكارم الإخلاق .

أما أنس بن مالك الذي خدم الوسول في أول الهجرة وعمره عشر سنين ومكث معه حتى لحق بالرفيق الأعلى ، فيقول عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال

لي أف قط ، وما قال لي لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق النبي صلى الله عليه وسلم » .

وإن من أهم الأدلة القاطعة عن حسن خلقه أنه عليه الصلاة والسلام دعا إلى محاسن الأخلاق في أحاديث كثيرة منها: « أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق» ، « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » ، « لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق » ، « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » . وكان يوصي بها أصحابه ، فعن أبي هريرة قال : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليك بحسن الخلق . قات : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك » . وعن أبي ذر قال . « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن» . وسئل الرسول: أي المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال : « أحسنهم خلقاً » . ولعل في حديثه الشريف : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ما يوضح قدر اهتمامه عليه الصلاة والسلام بالخلق . فإذا كانت هذه هي أحاديثه التي

يدعو فيها إلى الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة ويوصي بها المسلمين ، فهل كان لحسن خلقه حد ؟ . . أليس هو القدوة الطيبة ؟ وأليست لنا فيه الأسوة الحسنة ؟

ولقد بلغ صدقه حداً لم يعهده التاريخ ولم تعرفه السير ، فهو صادق مع نفسه ومع غيره ومع الله سبحانه وتعالى إلى درجة هي الصدق المطاق . وكم حبب للناس الصدق وأوصاهم به في مثل حديثه : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ، « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » .

وحتى في الأمور الصغيرة طالب بتحري الصدق فيها ، فعن عبد الله ابن عامر قال : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي : يا عبد الله . تعال حتى أعطيك . فقال عليه الصلاة والسلام : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً ، فقال : أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة » . وقد أوصى أصحابه وأتباعه بالصدق ، فيقول معاذ : « قال لي صلى الله عليه وسلم : أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح » . ويقول أبو هريرة : « قال

النبي عليه الصلاة والسلام : ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

ولعل ما حدث يوم وفاة ابنه إبراهيم يؤكد للتاريخ بصورة قاطعة أنه عليه الصلاة والسلام كان صادقاً إلى درجة لم يعهدها الناس ولم تعرف على بشر ، كما اعترف بذلك الرواة حتى من غير المسلمين . فقد حزن الرسول لموت ابنه الطفل الجميل إبراهيم فبكاه وهو يقول : « يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا » ، ثم يعترف بهذا الحزن في قوله : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون » .

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ، فشاع بين المسلمين أن ذلك معجزة ، وأنها انكسفت مشاركة في الحزن لموته ، وكان الشعراء يتخيلون دائماً في أشعارهم أن الطبيعة تشارك الإنسان المحبوب في أفراحه وأنها تظهر الأسى والحزن في مصابه ، وأن أهم مشاركة في الموت تخيلهم أن الشمس محتجبة أو السحب متجمعة ، فكيف لو كسفت لحظة دفن إنسان ، كما حدث في موت إبراهيم ؟ . ألا يدخل هذا القول العزاء في قلب النبي . . وتكون من أدلة حب الله له ومن تأييده لدعوته ؟ . ولكن الصادق الأمين ما إن سمع ذلك حتى وقف وهو الحزين ليخطب الناس بقوله : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتخسفان

لموت أحد ولا لحياته . فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » ، الله أكبر . . الله أكبر .

ومن ضمن ما تميز به سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف عنه رأفته بغيره ، وشفقته على من معه ، ورحمته بكل ما يمكن أن تصل إليه الرحمة ، بل قد بلغت رحمته حداً بعيداً لم يكن معروفاً ولا مألوفاً ، إذ شملت الحيوان والطير . فقد ركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة في سفر مع الرسول فجعلت تردده وتصرفه يميناً وشمالا ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : « يا عائشة ، عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » ، ثم قال في حديث آخر « إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » .

وعن عبد الرحمن بن عبدالله عن أبيه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حمرة – طائراً أحمر اللون – معها فرخان لها فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تضرب بجناحيها من أجل فرخيها ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : من فجع هذه بولدها ؟ . . ردوا ولدها إليها » .

بل إنه يوصي بالرحمة حتى في ذبح الحيوان إذ يقول : إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » . . ويوصي بإطعام الحيوان وسقيه ، فمن

أحاديثه الشريفة : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » ، ومما يروى في هذا الشأن : أنه بينما رجل يمشي في طريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه منه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ فقال : « نعم في كل كبد رطبة أجر». أما رحمة الإنسان بخادمه فقد أوصى بها النبي. وكان عليه الصلاة والسلام خير قدوة ، فإن في أحاديث زيد وأنس ما يظهر رحمة الرسول بهما ، وفي أحاديث شريفة كثيرة نجده يفيض بالرحمة على الخدم، منها: « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل مالا يطيق » ، « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله لقمة » ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت ، فأعاد الكلام فصمت ، فلما كان في الثالثة قال : في كل يوم سبعين مرة » ، والمراد الكثرة دون الحصر .

وليس أدل على رأفته ورحمته من قول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عنه :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

فلو عرف أصحابه عنه غير ما سمعوه من القرآن فيه لما تبعوه وما أيدوه . . ولكن طابق القول العمل ، صلى الله عليه وسلم .

وكان من ضمن ما أوصى به المسلمين أن يحفظوا ألسنتهم ولا يتكلموا إلا بخير ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام لا ينطق إلا بكل حكمة وخير دون رفع صوته ، الأمر الذي لم يكن العرب قد سمعوا به أو شاهدوه . فتقول عنه عائشة : « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » .

وكيف لا ، وهو القائل : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله امرؤ علم ما يقول » ، « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » ، « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء ، « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » .

ونهى عن اللعن حتى لعن الحيوان ، فعن أنس قال : « كان رجل يسير مع النبي على بعير ، فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم : يا عبدالله لا تسر معنا على بعير ملعون » ، وفي ذلك إنكار للعن البعير . وقد عاتب صديقه أبا بكر في ذلك مرة حينما سمعه وهو يلعن بعض رقيقه ، فالتفت إليه وقال : « يا أبا بكر ، أصديقين ولعانين ؟ . كلا ورب الكعبة . . كلا ورب الكعبة... كلا روب الكعبة » ، فأعتق ابو بكر رقيقه وأتى النبي قائلا : لا أعود يا رسول الله . . وكان عليه الصلاة والسلام يكره قول الزور وجعله من الكبائر ، فقد قال : « ألا أنبئكم

بأكبر الكبائر ؟ . الشرك بالله ، وعقوق الوالدين . ثم قعد وقد كان متكئاً وقال : ألا وقول الزور » .

ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة على الوفاء . . الوفاء بكل ما في هذه الكلمة من معان ، بل إن الوفاء يطاق على ما كان في تصرف سيدنا رسول الله نحو أهله وأصحابه وأتباعه والمسلمين بل وغير المسلمين . فقد أوصى بالوفاء للوالدين في مثل حديثه الشريف : « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله » ، « من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فمثل ذلك ، وإن كان واحداً فواحداً ، وإن ظلما . . وإن ظلما . . وإن ظلما ، ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، وإن أمسى مثل ذلك ، وإن كان واحداً فواحداً ، وإن ظلما . . وإن ظلما . . وإن ظلما » .

جاء رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » .. وهكذا يطالب الناس بالوفاء لآبائهم وأمهاتهم حتى بعد الموت . وضرب لنا مثلا كريما رائعا في ذلك ، فعن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في المقابر وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فناجاه

طويلا ، ثم ارتفع نحيب رسول الله باكيا ، فبكينا لبكاء الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم إن رسول الله أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ما الذي أبكاك ؟ لقد أبكانا وأفزعنا . فجاء فجلس إلينا فقال : أفزعكم بكائي ؟ قلنا : نعم . قال : إن القبر الذي رأيتموني أناجي ، قبر أمي آمنة بنت وهب . وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه ، فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذي أبكاني » أما وفاؤه عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب فيتمثل في أنه بالرغم من محاولته أن يهديه إلى الإسلام ورفض عمه ، وتكرار هذه المحاولة حتى أنزل لله تعالى فيه قوله :

« إنكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكِنَّ الله يهدي مَنْ يشَاءُ وهُو أَعْلَمُ بالمهتدِينَ » ، ثم مات ولم يدخل الإسلام ، فإن الرسول جعل يستغفر له الله أياما ولا يخرج فيها من بيته ، حتى أنزل الله سبحانه قوله : « ما كانَ للنّبيِّ والذين آمنوا أَن يستَغْفِرُوا للمشْرِكِينَ ولوْ كانُوا أولي قُرْبى من بعد ما تَبيّن لهمْ أَنهمْ أَصحابُ الجحِيم » .

ولقد ظل عليه الصلاة والسلام وفيا لزوجته خديجة ، فبالرغم من أنها توفيت في العام العاشر من البعثة فإنه دام يذكرها طول حياته ؛ فعن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة

فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيراً منها؟ .. فغضب وقال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وآستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بعد ذلك بما يسيء أبداً حتى لا يغضب » .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا ذبحت شاة يقول : « أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فإني لأحب من تحب » . وقد رأى يوما عجوزاً فوقف عندها وقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حفظ العهد من الإيمان » .

أما وفاؤه لأصحابه وأتباعه فيتمثل فيما حدث في غزوة أحد ، فقد دارت الدائرة على الكفار وانتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً ، وفرت قريش من المعركة ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام الرماة بحماية الممر الذي يؤدي إلى ميدان المعركة ، ولكن الهزيمة الساحقة التي أوقعها المسلمون بالأعداء وفرارهم بلا انتظام جعلهم يتهاونون في تنفيذ الأمر ، وكان خالد بن الوليد على رأس جيش الأعداء ، فما إن أحس بتخلي الرماة عن الطريق المؤدي إلى المعركة حتى التف برجاله حول جيش المسلمين الذي كان قد ترك مواضعه . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه طلحة وسعد بن أبي وقاص في المؤخرة ، فلم يكن أمامه إلا أن يختار بين أحد أمرين : إما النجاة بنفسه

والفرار إلى مكان أمين ويترك أصحابه لمصيرهم المحتوم ، وإما أن يذهب إليهم حتى ينبههم للخطر فيأخذوا حذرهم وفي هذا تعريض مباشر لنفسه . فلم يفاضل بين الرأيين ولم يفكر في أيهما يختار ، إذ اتجه فوراً إلى أصحابه بالرغم من أنهم عصوا أمره بترك أماكنهم وعرض نفسه للخطر كل الخطر في سبيل حياة أصحابه ، ولازمهم في وقت عسرة أقاموها بأنفسهم .

وحتى ينشر الوفاء بين الناس فانه قرر للمسلمين حقوقا قبل بعضهم البعض في مثل حديثه : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم وأن تستغفر لمذنبهم وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم » . كما قرر حقوق الجوار على اعتبار أن الجار هو أقرب الناس إلى الإنسان بعد أهله ، وليست حقوقه كما قد يتبادر إلى الذهن هي الصحبة الحسنة أو الألفة الطيبة فحسب ، إنما تصل إلى أبعد من ذلك ، فلو عمل بها الناس لعمت المحبة والرحمة العالم بأجمعه ، فهل هناك من إخاء ومحبة ووفاء قدر ما نحس بها في حديثه الشريف : « أتدرون ما حق الجار ؟ .. إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق

الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » .
ولا يقتصر حق الجار على المسلم فقط ، إنما بلغ الوفاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم للجوار أن يقرر أن حق الجار للمشرك أيضاً ، فحديثه الصحيح يقول : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذي الرحم ، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ؛ وأما الذي له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ؛ وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك » . فهل عرف التاريخ القديم والحديث مثل هذا الخلق الذي يتمثل في حديث محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقرر مبدأ العالم في حاجة إليه الآن لتسود المحبة والسلام ؟ . .

ومن الجوانب المضيئة في حياة سيدنا رسول الله والتي اتفق عليها المؤرخون ورواة السير تواضعه في غير مسكنة ، فبعد أن كان وحيداً أو مع قلة من صحابته في بدء الدعوة ، ينتشر دين الله الذي يدعو له ، وتدخل الناس في هذا الدين أفواجا ، وتأتي الوفود من كل مكان تعلن إيمانها برسالته ، ويظل الرسول كما هي نفسه ، لا تداخله كبرياء ، ولا يتصرف تصرف السادة العظماء ، فعندما تم فتح مكة ودخلها جيوش المسلمين ، وكان الرسول بين كتيبته الخضراء ، دخلها وقد خشعت نفسه وأحنى رأسه الشريف حتى مس عنق ناقته ، وهكذا دخل مكة ساجداً لله تترقرق في عينيه الدموع شاكراً لله نصرته وتأييده وهو يردد سورة الفتح ويطوف بالكعبة الشريفة.ومما يروى أن كثيراً ممن

كانوا يفدون على سيدنا رسول الله لأول مرة كان إذا دخل أحدهم عليه في مجلسه التفت ثم يسأل : أيكم رسول الله ؟ .. فلم يكن يتميز عن جلسائه في جلسته أو يزهو عليهم في ملبسه إنما كان يجلس كما يجلسون . . أليس هو القائل : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه في غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة ». وما أروع قوله عليه الصلاة والسلام « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى » . وهل يبلغ التواضع بأحد قدر ما بلغ بالرسول عليه الصلاة والسلام في قوله وقد أقبل أعرابي يقبل يده : « مه يا أخا العرب ، لا تفعل بي كما تفعل الأعاجم بملوكها . فان الله سبحانه وتعالى بعثني لا متكبراً ولا متجبراً بل بعثني بشيراً ونذيراً » .

أما سماحة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسامحه ، فقد روي فيها ما لا يمكن أن يوضع موضع الحصر . كان أقرب جيران النبي له عمه أبو لهب ، وبالرغم من أن ابنتي الرسول رقية وأم كلثوم كانتا زوجتين لعتبة وعتيبة ابني أبي لهب فان العداوة التي لاقاها الرسول من أم جميل زوجة أبي لهب قد تحدث عنها التاريخ بإفاضة حتى أن القرآن الكريم أطلق عليها « حمالة الحطب » وهي التي تمشي بين الناس تحمل الحطب لتشعل النار ، وقد كان ذلك هو عملها إذ تشعل نار الفتنة بين

الناس وبين الرسول . وكانت إذا رأت محمداً وصحبه لعنتهم وشتمتهم، وكانت تطلق على سيدنا رسول الله « مذمما » أي عكس محمد ، فكان صلى الله عليه وسلم يصرف عنها غضب قومه ويقول لهم ؛ « يا عباد الله ؛ انظروا كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم ، يلعنون مذمما وأنا محمد » . وما كان أيسر اعتداء صحبه عليها ، ولكن ما كان أشد تسامحه عليه الصلاة والسلام . أما جاره الآخر فهو من كانت تقول عنه عائشة محدثة عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « كنت بين شر جارين بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط » أما عقبة فكان يأتي بالروث والقذارة فيطرحها على باب الرسول ولا يقول عليه الصلاة والسلام إلا : « يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ » ثم يأخذ ما وضعوه على بابه ويلقيه في الطريق .

إن أذى قريش للرسول من الأمور التي تحدث عنها التاريخ ، فقد بالغوا في إيذائه . أما من كان يقتل من المسلمين فكان يمثل بجسده أبشع تمثيل ، وهل هناك أفظع من خروج هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بعد أن قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، فتبقر بطنه وتجذب كبده بين يديها وتلوكها بأسنانها ولكنها لا تلين فتلفظها ؟ .. كم جدعت أنوف قتلى المسلمين وصلمت آذانهم ؛ .. وكم حزن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فيا ترى ماذا فعل الرسول بهؤلاء المشركين عندما فتح مكة وانتصر المسلمون؟

لقد خلع الرسول سعد بن عبادة من الإمارة وأسلمها إلى

ابنه قيس حينما بلغه أن سعداً وقف على أبواب مكة يتوعد قريشا وهو يقول : « اليوم يوم الملحمة .. ؛ اليوم تستحـــل الحرمة » .. فقد انتوى الرسول أمراً ما كان ليخطر ببال بشر .. وما تعوده التاريخ من ملوك أو قواد أو فاتحين. فقد وقف يخطب على باب الكعبة وقد جمع كل أهالي مكة وبدأ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .. ثم قال : « يا معشر قريش ؛ ماذاتقولون ؟ وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » . قالوا : « خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم. قال عليه الصلاة والسلام : « أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء » .. لم يثأر لعمه .. ولم يقتص لمن قتل من المسلمين .. بل عفا عن المعتدين .. ووصل إلى حد لم يصله أحد من قبل ولا من بعد.. الدعاء والاستغفار لهم ..

وكان حديثه عن الصبر كثيراً .. فهو القائل : « اعبد الله على الرضا ، فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، «الصبر كنز من كنوز الجنة» ، « لو كان الصبر رجلا لكان كريما ، والله يحب الصابرين » . وهل هناك دعوة للصبر أبلغ وأروع من حديثه الشريف : « ما من أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى . إنهم يجعلون له ندا ويجعلون له ولداً وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم » ؟ . لذلك فإنه كان إذا قيل له في قتال : لو لعنتهم يا رسول الله . يجيبهم بقوله : « إنما بعثت

رحمة ولم أبعث لعانا » . وكان يدعو لهم بدلا من الدعاء عليهم.. بالرغم من أن الأنبياء السابقين قد دعوا على من كفر من أقوامهم بنص الآيات الشريفة :

« وقالَ نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِين ديّاراً » ، « لُعن الذين كَفَرُوا مِنْ بني إسْرائيلَ علَى لِسَانِ دَاوُدَ وعيسى ابنِ مَرْيَمَ » ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان عندما يشتد قتال الكفار له يقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ...

وهناك جانب مشرق في حياة سيدنا رسول الله أراد الله أن يظهره للعالمين فقيض له سبحانه وتعالى من حاول أن يهاجم الرسول بتعدد زوجاته وكيف أن هذا التعدد إنما أراد به المتعة الدنيوية . وإن الباحث في حياة الرسول ليجد بما لا يقبل الشك والجدل أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس عن المتعة الحسية ، وأنه هدف بزواجه إلى ما يؤكد حسن خلقه ، وطيبة قلبه ورحمته باتباعه ورغبته في حفظ الدعوة ونشرها .

وهل هناك من دليل أكثر وضوحاً على عفة الرسول من أنه وهو شاب في ريعان شبابه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره يتزوج بالسيدة خديجة التي بلغت الأربعين من عمرها وسبق لها الزواج مرتين ؟ ثم لا تنجب هذه السيدة سوى الإناث فلا يتزوج عليها طلبا للولد مخالفا بذلك ما كان منتشراً في بلاد العرب وسائداً بين القبائل، ويعيش معها إلى أن تلقى ربها ولها

من العمر خمسة وستون عاما ، فهل يكون زوج مثل هذه السيدة الكبيرة السن وهو يصغرها بخمسة عشر عاما ميالا للنساء حريصا على متعة الأجساد ؟

وألا يؤيد زواجه الثاني هذا الرأي ؟ . . فإنه بعد عام من موت خديجة وعودته من الطائف أحسَّ أصحابه الأبرار أن الرسول يستشعر الوحشة في منزله ، فعرضوا عليه الزواج دون أن يطلبه ورشحوا له عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي عذراء جميلة صغيرة . . إلا أنه يختار سودة بنت زمعة التي آمنت به وأسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذي مات وتركها وحيدة . وكانت سودة هذه كبيرة السن ضامرة الجسد ليست ممن يطلبها الرجال أو يتمتع بها الأزواج ، ولكنها مؤمنة مجاهدة هاجرت في أول هجرة للإسلام .

هذا هو زواج الرسول ، أما ما تم بعد ذلك فإنما كان يهدف إلى معان سامية ، ويحقق الخير للدعوة وللمسلمين والمسلمات . فرغبة منه عليه الصلاة والسلام في ربط المسلمين الأول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ببعض وربطهم به وإظهار حبه لهم وتقديره لموقفهم ، فقد جمع بالمصاهرة شملهم ، فتزوج عليه الصلاة والسلام بعائشة بنت أبي بكر ، ثم بحفصة بنت عمر بعد أن مات زوجها ، كما زوج عثمان ابنته رقية فلما ماتت زوجه أختها أم كلثوم ، وزوج ابنته فاطمة لعلي ابن أبي طالب .

ولما كانت من عادة العرب إذا مات الرجل أن يتقدم

صديقه الى زوجته ليتزوجها اكراماً لزوجها ورعاية لشأنها وشأن اولادها ، وقد مات في الحروب من المسلمين رجال تحدث التاريخ عن جلائل أعمالهم وروائع جهادهم ، فقد تزوج الرسول بعض زوجات هؤلاء من الذين أبلوا بلاء حسناً ولم يجدوا من يتقدم للزواج منهن ، إما لكبر سنهن أو كثرة أولادهن ، ولذلك تزوج زينب زوجة عبيدة بن الحارث الذي قتل في وقعة بدر وكان على رأس أول سرية في الإسلام ، أما ما كانت عليه زينب فإن ما اشتهرت به يكفي للدلالة عليه ، فقد كانت تلقب بأم المساكين . وكذلك تزوج هندا أم سلمة زوجة أبي سلمة أحد مهاجري المسلمين الأول إلى الحبشة ، وقد تقدم لها قبله عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعمر فرفضت ، ولعل في سبب رفضها ما يكفي لمعرفة كيف كانت ، فقد قالت لمن تقدم للزواج منها : « إني امرأة مسنة وأم أيتام» . وعز على الرسول أن تظل هذه المجاهدة وحيدة فتزوجها .

وقد دعا الإسلام إلى تحرير الرقيق وحبب العتق ، وكان للسيدة خديجة عبد اسمه زيد حرره الرسول ، فهل يصبح العبد بعد تحرره نداً للسيد؟.. فليضرب لنا الرسول الأسوة الحسنة ، فقد طلب زيد هذا من النبي أن يزوجه ابنة عمه زينب بنت جحش ، فلما تزوج العبد السابق سيدة قريش سليلة المجد والحسب كان ذلك تشريعا للمسلمين وحفزاً لهممهم بترك هذه الفوارق التي وضعها الكفر والشرك . وكانت التقاليد لا تجيز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه . ولا تجوز للمتبني أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة

عبد، ولكن القدوة للناس تزوج زينب بارادة الله حتى يكون تشريعا جديداً ، وليس كما يقول خصوم الإسلام إنه تزوجها لجمالها ، ترى أين كانت زينب وهي عذراء ؟ .. أليست قريبة من الرسول ؟ . . وأليست بنت عمه ؟ فكيف يتركها عذراء ثم يتزوجها بعد أن تزوجها عبده إذا كانت له فيها حاجة ؟ ..

أما ما تم بعد ذلك من زواج فقد كان لتحقيق أهداف سياسية ، فقد تزوج جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من بني المصطلق ، وصفية بنت حيي بن أخطب من يهود خيبر ، وذلك بعد انتصار الإسلام على هذه القبائل؛ وقد مكن هذا الزواج للإسلام الذي اعتنقه كثير من أهالي هذه القبائل بعد ما رأوا من سماحة الرسول وتقديره الذي تجلى في زواج كرائم كبارهم والذين أسروا في المعارك . كما كان من حسن السياسة أن يطلب الرسول من النجاشي ملك الحبشة الذي آوى المسلمين والمهاجرين وأكرمهم أن يكون رسوله في طلب الزواج من أم حبيبة زوجة عبدالله بن جحش وهي بنت أبي سفيان ، وقد مات زوجها ، ويعتبر أبوها عدو الرسول الألد وأكبر مهاجمي الإسلام. ويذكر بعض المؤرخين أن النبي تزوجها ليرتبط مع أبي سفيان برابطة النسب توكيدا لعهد الحديبية؛ ويذكر غيرهم أن في زواج أم حبيبة من محمد — وأبو سفيان على وثنيته — ما تألم له نفسه ويغص به حلقه .

وقد أهداه المقوقس جارية قبطية هي مارية ، فأكرمها الرسول وأكرم مهديها بزواجه منها .. كما تزوج ميمونة بنت لحارث خالة خالد بن الوليد ، ومن خالد في العرب وعائلته

في قريش ؟ . فأسلم بعدها خالد . وقد وقعت ريحانة احدى سبايا بني قريظة في سهم سيدنا محمد فعرض عليها الإسلام ليتزوجها فأصرت على يهوديتها وأن تظل في خدمته ولعل ذلك يرجع إلى عصبيتها بقومها ، واختلفت السير فيها هل ضرب عليها الحجاب كنساء النبي أم ظلت كسائر نساء العرب .. إلا أنها بقيت في ملكه حتى ماتت عنده .

هذا هو زواج الرسول فهل فيه ما يثير في أي نفس الشك في أنه تزوج لحبه للنساء ؟ وهل تزوج واحدة لجمالها أو شبابها ؟ بل هل كان في واحدة منهن مشتهى لرجل؟ وكيف يمكن لعقل متزن وفكر سليم أن يشتبه الأمر عليه بشأن رجل يحتفظ بزوجة واحدة مدة خمسة وعشرين عاما إلى أن يتخطى الخمسين من عمره ، فيقول إنه تزوج بعد ذلك لرغبته في النساء ؟ وتزوج بتسع في سبع سنوات ؟ .. ثم ما باله لا ينجب من كل هاته النسوة إلا من مارية القبطية ولداً واحداً ، وقد سبق له أن أنجب من زوجته الأولى وسبق لكل نسائه أن أنجبن من غيره ؟

إن الحديث عن أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يصل إلى نهاية ، فلقد أدهش الرواة والمؤرخين ما كان عليه النبي من خلق كريم وقلب رحيم وإحساس نبيل وشعور جميل ، حتى قال بعض الحكماء عنه : « لقد جمعت الأنبياء خير صفات أقوامها ، وجمع محمد صفات الأنبياء كلها » . لذلك فأن كل من رآه أحبه ومن سمع عنه آمن به ، ويقول المسعودي في حديث طويل عن وصفه للرسول : « كان الرسول أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم

عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله » .

أقبل عليه رجل فظ سمع أن محمدا يسب آلهة قريش ، فحمل سيفه ودخل عليه بحديث عاصف مزمجر ، والرسول يبتسم وتنطلق مع بسماته ومضات من أنوار الإيمان ، وزاد ضجيج الرجل ، وقابله الرسول بحلم وهدوء وابتسامة صافية ، وما هي إلا لحظة حتى انكفأ الرجل على يدي محمد وقدميه يقبلهماوقال : « يا محمد . والله لقد سعيت إليك وما على وجه الأرض أبغض إليّ منك ، وإني لذاهب الآن عنك وما على وجه الأرض أحب إليّ منك » ... ويقول أبو سفيان بن حرب : « ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً » .

ولعل ما أصاب صحابته عندما علموا بوفاته لخير دليل على قدر ما كانوا يعرفونه فيه ، فتقول عائشة رضي الله عنها : « لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقتحم الناس حين ارتفعت السّر ، فاختلفوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون ، فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعليّ فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس ، فخرج عمر عليّ الناس وقال : « أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت . والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا » . وأما عليّ فإنه أقعد فلم يبرح مكانه ، وأما عثمان فجعل لا يكلم أحداً ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به . وأما أبو بكر فإن الله عز وجل أيـده بالتوفيق والسداد فقد خرج ليقول : « أيها الناس ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلله الحمد وحده . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك بأفضل ما صليت . ألا أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت » . . ولكنه دخل إلى حبيبه الذي لازمه وانحنى على جبينه ووجهه يقبله ويقول : « بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حياً وميتاً » ، وكانت دموعه تهطل بغزارة ما تعودتها العيون ، وغصصه ترتفع ، حتى عج أهل البيت وارتفعت أصواتهم تدوي في الآفاق أسفاً وحزنا على فراق سيد البشر وخاتم الرسل والنبيين .

ولقد أنصفه بعض خصوم الإسلام، فإن السيرة العطرة لم تكن لتخفي ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من خلق كريم ؛ لذلك فإن المنصف للتاريخ والراوي للحق إذا ما تعرض لحياة الرسول وجدها تفيض بأدلة ناطقة على صدقه وتأكيد لنبوته . فيقول كارلايل في كتابه (الأبطال) : « لقد أصبح من أكبر العار

على كل فرد ممدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق ... هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا وينشره ؟ .

عجبا والله إنه لمما يبطل دعوى القائلين أن محمداً لم يكن صادقا في رسالته ، أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك المعيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولم يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية. إنه رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراما ، وإكباراً وإعظاما ، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة ، وهم ملتفون به ويقاتلون بين يديه ، ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة ، وبادرة وعنجهية ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل

جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ؛ ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لــه وأذعنوا » .

ويقول أرنست رينان في كتابه « تعليقاتي على تواريخ الأديان » : « قد دلتني تحرياتي العلمية والتاريخية على أنه لا صحة مطلقا لما أريد إلصاقه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية والعادات القوميةالتي أراد بعض المتحاملين أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة وتعصبهم الذميم ، كقولهم : إنه كان يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً كما أثبتت الوثائــق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك بريئا من روح الكبرياء متواضعا صادقا أمينا لا يحمل الحقد لأحد ، وكانت طباعــه نبيلة وقلبه طاهراً ورقيق الشعور » .

أما الفيلسوف المؤرخ لين بول فيقول : « إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق حتى إن الانسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادرا عن غير ميل أو هوى ، كيف لا وقــد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما فلم يهن له عزم ولا ضعفت له قوة ، وبلغ من نبله أنه لم يكن في حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحه حتى ولو كان المصافح طفلا ، وأنه لم يمر بجماعة يوما رجالا كانوا أو أطفالا دون أن يقرئهم

السلام وعلى شفتيه ابتسامة حلوة وفي فيه نغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعها وتجذب القلوب إلى صـــاحبها جذبا » .

هذه لمحة عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة .. فهل اجتمع لفرد مثل هذه الأخلاق ؟ وهل يمكن لصاحبها أن يقول إلا الصدق ؟ وأليس كل ما يدعو إليه يكون الحق ؟ ..

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبيا ؟ ؛



معجـــزة الأمي

« هُوَ الّذي بَعَثَ في الأمّيّينَ رَسولاً منهمْ يَتلُـــو
عَلَيهم آياتِهِ ويُزكّيهمْ وَيُعَلّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكمَةَ
وإن كانُوا من قبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ » .

(سورة الجمعة — ٢١)

كانت دعوة الرسل تجد من أقوامهم الإعراض والتكذيب ، لاسيما أنها تدعوهم إلى ترك معتقداتهم التي وجدوا عليها آباءهم ، وكانت الدعوة بذلك مهمة شاقة وأمراً غير يسير .

وحتى يمكن للرسل إقناع أقوامهم بأنهم مرسلون من الله سبحانه وتعالى قبل أن يدعوهم إلى ترك باطل عقائدهم وعودتهم إلى عبادة الله وحده ، كان لا بد أن يقدموا لهم الدليل على أنهم بعثوا من الله لهم ، فكانت هذه الأدلة معجزات اختص الله سبحانه جل شأنه كل رسول بنوع منها ، وشاءت إرادة الله أن تكون معجزة كل رسول من جنس ما اشتهر به قومه حتى يمكن أن يعرضوا هذا الدليل على عقولهم ويقارنوا بين ما أتى به الرسول وما أتَوْا هُمْ بِهِ .

فقد اشتهر القوم الذين أرسل لهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالسحر ، وكان عصره يسمى عصر السحرة ، فهذه عرافة تفرق بين الزوج وزوجته ، وهذا ساحر يفسد على الإنسان عمله ، بل بلغ من سحرهم أنهم اجتمعوا بسيدنا موسى فألقوا أمامه حبالا خيل للناس من سحرهم أنها حيات تسعى ، فلما ألقى عصاه اهتزت وتحركت وابتلعت حبالهم ، فشهد له السحرة أنه لا بد مؤيد من الله ، فقد جاء بما لا يمكنهم عمله ،

ولم يسبق لهم به معرفة ، فلما آمن به كبارهم ، صدقه كل من سمع عنه أو شاهد بعضاً من معجزاته ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة الشعراء :

« فلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لنَا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ . قالَ : نَعَم وَإنَّكُمْ إذاً لَمِنَ المُقرَّبينَ . قَال لهم مُوسَى . ألقُوا مَا أَنتُم مُلْقُونَ . فَألقَوا حِبَالَهُم وَعِصيّهم وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرعَونَ إنَّا لنَحنُ الغَالِبُونَ . فَألقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأفِكُونَ فَأُلقِيَ السَّحرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا : آمنَّا بِرَبّ العَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وهَارُونَ » .

وأرسل الله سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لقومه في زمن كان الطب قد تقدم فيه ، فما من جماعة إلا وحديثها عما في الطب من جديد . أما الأفراد فهم مشغولون بالمرض والعلاج ، ولذلك كانت معجزته من نفس ما أتقنه قومه واشتهر به زمانه ، لم يعالج مريضاً كما عالج الناس ، ولكنه يبرىء الأكمه ، والأبرص ، ويرد البصر للأعمى بإذن الله ، بل أحيا الموتى عند ما شاء الله بإرادة الله ، ولهذا آمن به الذين رأوه أو سمعوا عنه وصدقوه من هؤلاء الذين كانوا يجيدون الطب ويعرفون طريق العلاج ؛ كما أوتي أيضاً معجزة الخلق للطير بإذن الله ، وذلك بنص الآيات الشريفة من سورة المائدة :

« إذْ قَالَ الله : يَا عِيسَى ابن مَريَمَ اذكُرْ نِعمَتِي عَلَيكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إذْ أيّدتُك برُوح القُدُسِ تُكَلِّم

النّاسَ في المَهدِ وكَهْلاً ، وإذ علّمتُكَ الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيلَ ، وإذْ تخلُقُ مِنَ الطّينِ كَهَيئةِ الطّيرِ بإذْني فتَنفُخُ فيها فتكُونُ طَيراً بإذْني ، وتُبْرِئُ الأكمهَ والأبرصَ بإذْني ، وإذ تُخرِجُ المَوتَى بإذْني ، وإذ كففتُ بَني إسرائيلَ عَنكَ إذْ جِئتَهُم بالبيّناتِ فقَالَ الذينَ كَفَرُوا مِنهم : إن هذا إلا سِحرٌ مُبِينٌ » .

ثم أرسل الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بآخر الأديان ، ليكون خاتم الرسل والنبيين ، وليس فقط لقومه ولكن للبشر جميعاً بنص الآيات :

« وَما أرْسَلناكَ إلا كافّةً للنّاسِ بَشيراً ونَذيراً » ، « قُلْ : يأيّها النّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً » ، بخلاف باقي الرسل الذين أرسلوا لأقوامهم : « لَقدْ أرْسلنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ : يا قوْمِ اعبدُوا الله » ، « ولقدْ أرسَلنا مُوسَى بآياتنا إلى فرعَونَ ومَلَئِه » ، « وإذ قالَ عيسى ابنُ مَرْيمَ : يَا بني إسرائيل إني رسول الله إليْكمْ » .

لذلك كان لا بد أن تكون معجزته للناس جميعاً ، وأن تكون مستمرة لا لعصرها فقط ولكن إلى أبد الآبدين ، حتى يؤمن بها قومه ومن بعدهم ، وتعجز الأقوام الآخرين أياً كان مقامهم ، ومهما كان وقتهم .



وكانت معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي أيده الله بها قرآناً عربياً في ١١٤ سورة تشتمل على ٦٢٣٦ آية وتحوي ٧٧٤٣٩ كلمة . . وهو معجزة كانت للعرب في وقت الرسالة وما زالت للعرب حتى النهاية ؛ كما أنه معجزة لغير العرب من مختلف الأجناس والألوان واللغات ، إذ يحتوي على أوجه من الإعجاز تجعله حتماً وصدقاً معجزة كل زمان وأوان . . وكل قوم في أي مكان .

القرآن معجزة لم يعد في ذلك شك ولا يختلف فيه فرد عن غيره ما تدبروه .

لقد بلغ العرب في عهد نزول القرآن مبلغاً من الفصاحة ودقة الأسلوب والتمكن في اللغة يدل على قدره أنهم كانوا إذا احتفلوا تباروا في الكلام وأنشدوا القصائد ، وإذا اختصمت القبائل فانها تظل مدداً قبل الحرب تتقارع بالشعر وتتنازع بالقول ، بل كانت لهم اجتماعات خاصة تعقد دورياً تعرض القبائل فيها إنتاج بلغائها وقصائد شعرائها ، فنزل القرآن وحياً على الرسول حيث تلاه على هؤلاء القوم ، فأخرسهم ، وأدهشهم ، أنه يتكون من حروف عربيتهم ومن ألفاظ لغتهم ، ولكنه لا يشابه ما عرفوه ، ولا يماثل ما عهدوه ، فكيف . . . وهم سادة اللغة وأرباب القلم وأصحاب جوامع الكلم ؟

يعرف العرب في كل مكان وأي زمان أن أحسن الشعر أكذبه ، وآيات القرآن صادقة الصدق كله وبليغة البلاغة التي لم تعهد في غيرها . وأي قصيدة مهما كان قائلها تتفاوت درجة

فصاحتها ، إذ تجدها بليغة في بعض أبياتها وأقل في البعض الآخر ، ولا يمكن أن تكون القصيدة كلها على درجة واحدة من الفصاحة لا سيما إن طالت القصيدة ، بينما القرآن الكريم به سور طويلة تضم قصصاً ليست بالقصيرة ، وبالرغم من ذلك نجد أن كل آياتها في درجة واحدة من البلاغة ، بل إن القرآن كله على مستوى واحد من الفصاحة والبلاغة وهو فوق ما عهد البشر .

ويتجنب البلغاء كتاباً وشعراء تكرار مضمون كتاباتهم أو موضوع قصائدهم أو وقائع قصصهم ، إذ لا بد أن يظهر اختلاف في درجة البلاغة إذا كرر الكاتب مضمون ما كتب . . والقرآن الكريم قد كرر قصص الأنبياء وأحوال البعث والحساب ولا يظهر أي تفاوت في درجة بلاغته .

ومعالجة الأمور الطيبة والدعوة إلى مكارم الأخلاق والحث على الخير وتحريم الشر ونشر الفضائل ووجوب العبادات والطاعات وترك مفاتن الدنيا ومباهجها والعمل للآخرة . . كل ذلك من الأمور المعروف أن معالجتها لا تمكن الكاتب من أن يكون بليغاً ، بينما القرآن الكريم قد جاء بها فصيحاً غاية الفصاحة ، بليغاً إلى درجة لا يبارى فيها .

والمعروف أن الكاتب أو الشاعر إذا اشتهر بالإجادة في فن فإنه يضعف بيانه إذا عالج فناً آخر ، ولذلك فإن الشاعر الذي يجيد الغزل مثلا لا يجود شعره إذا كتب في الحماسة أو الحرب ، ومن أجاد الكتابة في الترغيب لا يجيدها إذا كتب في الترهيب ،

أما القرآن الكريم فقد جاء فصيحاً في كل ما احتواه ، سواء وهو يقص على الناس القصص أو يبشر بالنعيم أو يتوعد بالجحيم أو يصف جزاء الثواب أو يرسم صورة العذاب . ولا يمكن الاستدلال بالآيات فإن كل آية من القرآن تشهد الشهادة التامة وتقدم الأدلة المؤكدة على فصاحتها .

ولم يستطع أي شاعر أو كاتب أن يصور فيما يكتب إلا ما رأى ، لذلك اقتصرت فصاحة العرب على وصف جارية أو فرس أو أمير ، أو تسجيل معركة أو تصوير بناء ، أما القرآن الكريم فإنه وصف ما لم تره العين ، مثل النعيم الذي أعده الله للمتقين في آيات كثيرة، منها :

« والسّابقونَ السابقونَ ، أُولئِكَ المقرَّبون ، في جنّات النعيم ثُلةٌ مِن الأوَّلين ، وقليلٌ مِن الآخِرينَ . على سُرُرٍ موْضونَة . مُتّكئينَ عليها مُتقابلينَ ، يطوفُ عليهمْ وِلدانٌ مُخلدُونَ . بأكوابٍ وأباريقَ وكأس منْ معينٍ . لا يُصدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون . وفاكِهَة مِمّا يتَخيّرُونَ . ولحْمِ طَيْرٍ مِما يشْتَهونَ . وحور عِينٌ . كأمثالِ اللؤلؤ المكْنُون».

والجحيم الذي يجازي الله به المكذبين في مثل الآيات :

« ويْلٌ يومئذ للمُكَذّبين . انطَلِقوا إلى ما كنتُمْ بهِ تُكَذّبُونَ . انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعبٍ . لا ظَليلٍ ولا يُغْني مِنَ اللّهَبِ . إنها ترمي بشررٍ كالقصر . كأنه جِمالَةٌ صُفْرٌ . ويْلٌ يومئذ للمُكَذّبين» .

ومثل خلق السموات والأرض كالآية : « أو لَمْ يرَ الذين كَفَرُوا أنَّ السموات والأرْضَ كانَتَا رتْقاً فَفَتَقْناهُما » .

وكتطورات خلق الجنين في الرحم قبل أن يعرفها التشريح وتكتشف المجاهر مثل الآيات : « ولقَدْ خلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلالَة مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جعلْنَاه نُطْفَةً في قرارٍ مكينٍ . ثمَّ خلَقْنَا النُّطْفَةَ علَقَةً فَخلَقْنَا العلقَةَ مُضْغَةً فَخلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسونَا العِظَام لحْماً ثم أنْشَأنَاهُ خلْقاً آخر فتَبَاركَ اللهُ أحْسَنَ الخَالِقين » .

ولا يستطيع الشاعر أو الناثر أن يكتب في موضوع ثم ينتقل إلى غيره ويبقى الربط قوياً بين الموضوعين وبحيث لا يخل بالكتابة شعراً أو نثراً . والقرآن الكريم يأتي بالأمر والنهي والوعد والوعيد والنعيم والجحيم والترغيب والترهيب ويلاحظ فيه كمال الربط وتمام الوصل مثل الآيات :

« فأمَّا إنْ كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ . فَروْحٌ وَرَيْحانٌ وَجنَّةُ نَعِيمٍ . وأمَّا إنْكَانَ مِنْ أَصْحابِ اليَمِينِ .فَسَلامٌ لَكَ من أَصْحابِ اليَمِينِ . وأمَّا إنْ كَانَ مِن المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ . إنَّ هَذَ لَهُوَحَقُّ اليَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ » .

وكلما أراد البلغاء توضيح زيادة في معنى لجأوا إلى الإسراف في الكلام ، بينما القرآن الكريم يأتي بألفاظ يسيرة تتضمن معاني

كثيرة مثل : « وَلَكُم في القِصَاصِ حَيَاةٌ » .

ولا يمكن أن تخلو قصيدة أو قطعة من الأدب من لفظ ركيك أو كلمة ينفر منها السمع ، أو لا تتمشى مع باقي النغم ، ولكن القرآن على طوله واشتماله على جميع أنواع البلاغة والتشبيه والتمثيل والاستعارة لا يوجد به لفظ واحد شاذ أو نافر أو لا ينسجم مع باقي موسيقاه .

وينحصر الكلام في الشعر أو الزجل أو النثر ، والقرآن الكريم قد خرج عن قوانين كلام العرب وطوائفه ، فلا هو بشعر وما هو بزجل كما أنه ليس بنثر ، إنما هو قرآن كريم :

« كِتَابٌ أُحكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُنْ حَكِيم خَبِير » .

لذلك رأى العرب ، منذ استمعوا إلى أول آية يتلوها سيدنا رسول الله ، أنه في درجة من البلاغة لم يعهد مثلها في تراكيب اللغة ، وتقصر عنه درجات بلاغتهم ، فهو ذو تأليف عجيب وأسلوب غريب ونغم رتيب ، مقاطعه وفواصله مما تدهش العقل ، وبيانه وآياته تسحر النفس. فقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعت لذلك الإنس والجن بنص الآية الشريفة :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بِمثْلِ هَذَا القُرْآن لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ » . . ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور ويستعينوا بمن شاءُوا بنص الآية : « أم يَقُولُونَ افتَرَاهُ ، قُل فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثلِهِ مُفتَرَياتٍ

وادعُوا مَن استَطَعْتُم من دُونِ اللهِ إن كُنتُم صَادِقِينَ » .

بل تحداهم بسورة واحدة في الآية الشريفة : « قُل : فَأتُوا بسُورَة مِثلِهِ وادعُوا مَنِ استَطَعتم من دُونِ اللهِ إن كنتم صَادِقين » . وفي الآية الشريفة : « وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمّا نزَّلْنَا عَلَى عبدِنا فَأتُوا بِسُورَة مِن مِثلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دون اللهِ إن كُنتُمُ صَادِقِينَ » . ويقرر القرآن نتيجة التحدي في الآية التالية ونصها : « فَإن لَمْ تَفعلُوا وَلن تَفعَلوا فَاتّقُوا النّارَ التي وَقودُها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ لِلكافِرينَ » .

أدهش أسلوب القرآن الكريم العرب منذ أول آية نزلت ، حتى الخصوم الألداء لم تمنعهم عداوتهم لأي دعوة لتغيير معتقداتهم من الاعتراف بما في القرآن من إعجاز لغوي ، فها هو ذا الوليد بن المغيرة تجتمع إليه قريش ، إذ كان شيخاً من كبار دهاة العرب ، فقالوا « يا أبا عبد شمس ، ما هذا الذي يقول محمد ؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب ؟ » . فقال : « دعوني حتى أسمع كلامه » ، ودنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد ، أنشدني من شعرك » ، قال عليه الصلاة والسلام : « ما هو بشعر ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله » ، فقال : « اتل عليّ منه شيئاً » : فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالْعَدْل والإحْسَان وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى

وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيْ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

فاقشعر الوليد وانتفض وذهب إلى داره حيث اعتكف ، فمشوا إلى أبي جهل وهو ابن أخيه ، فقالوا : « يا أبا الحكم ! إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد ، فقد ذهب إليه ولم يرجع إلينا » ، فذهب إليه أبو جهل وقال « يا عم ، نكست رءوسنا ، وفضحتنا ، وأشمت بنا عدونا ، وصبوت إلى دين محمد » ، فقال الوليد : « ما صبوت إلى دينه ولكن سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود » . ثم إن قريشاً اجتمعت قبيل الموسم لتجمع رأيها في رسول الله فلا يكذب بعضهم بعضاً ، فقالوا : نقول كاهن . قال الوليد : والله ما هو كاهن بزمزمته ولا سجعه . قالوا : مجنون . قال : ما هو مجنون لا بخنقه ولا وسوسته ، قالوا : نقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، وقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو ساحر ولا نفثه ولا عقده وقال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول ذلك بشر . وتفرق القوم على أن يمنعوا الناس من الاستماع إلى ما يتلوه الرسول ، فإنه يقول ما لا سبيل إلى معارضته ، ولا طاقة لهم إلى الانصراف عنه ولا منجاة لهم إلا بعدم سماعه . . أليسْ ذلك اعترافاً منهم بإعجاز القرآن ؟ ،

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي سيد قبيلة دوس يجتمع به

أشراف قريش وقد حضر إلى مكة حاجاً ، فما زال القوم يحذرونه من الاستماع إلى محمد حتى سد أذنيه بالقطن ، وفي ذلك يقول : « فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد خشية أن يبلغني شيء من قوله ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة . فسمعت رغماً عني كلاماً حسناً فقلت : واثكل أمي . والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته ؟ فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته ودخلت عليه وقلت : يا محمد ، إن قومك ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني لئلا أسمع قولك ، ولكني سمعت قولا حسناً ، فاعرض عليّ أمرك . فعرض علي صلى الله عليه وسلم الإسلام وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه ، وشهدت شهادة الحق ، فأسلمت » .

وهذا عمر بن الخطاب الذي عرف بقوته وشدته وجرأته ، حتى كانت قريش تخافه دون سواه ، عند ما يجد هجرة بعض قومه إلى الحبشة في أول هجرة للمسلمين يخرج متوشحاً سيفه معتزماً قتل النبي ، فيقابله نعيم بن عبدالله الذي يقول له : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ ، إن ابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك تهما ، فيرجع عمر إلى بيت أخته التي كانت تقرأ القرآن ،

فيبطش بزوجها ويضربها حتى يسيل دمها ، وهما يقولان : لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . وطلب الصحيفة التي كانت تقرأ منها فلا تسلمها له إلا بعد أن يقسم لها بآلهته ليردنها إليها ، ثم يغتسل حتى لا يمسها إلا وهو طاهر ، وما إن قرأ منها أول آيات سورة طه حتى قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » . . وذهب إلى رسول الله في بيته وما زال ممسكاً سيفه ، ودخل عليه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة » . فقال عمر : « يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله » . وكبر الرسول تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم .

ويقص علينا التاريخ كيف آمن كل عربي استمع إلى القرآن فوجده فوق قول البشر ، فها هوذا أعرابي يسمع مسلماً يقرأ :

« فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر » ، فيسجد ويقول : سجدت لفصاحته . وهذا مشرك يستمع إلى قول الله : « فلَمَّا اسْتَيْئَسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً »

فيقول : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . وهذا جبير بن مطعم يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بسورة الطور فلما أن بلغ الآية الشريفة :

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ والأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ » .

كاد قلبي أن يطير وأسلمت . وهكذا فإنه ما من عربي يتدبر القرآن في أي وقت إلا تعجزه بلاغته ويؤمن بدعوته .

ومن أوجه إعجازه أنه يحوي كل ما يهم الإنسان في حياته كفرد أو كعضو في جماعة ، ولم يترك شيئاً إلا أورد حكمه فيه فيما يمس الحياة الدنيا وعلاقة الإنسان بنفسه وبغيره وبربه ، وكذلك علاقته بالآخرة من بعث وحساب وعقاب وثواب :

« ونَزَّلْنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحمةً وَبُشرَى للمُسلمِينَ » .

والقرآن الكريم أول كتاب جاء بحقائق ما كان في سابق الزمان من أديان ، واشتمل على أخبار القرون الماضية والأمم السابقة وما كان على الأرض من أحداث بالحق :

« تِلكَ القُرىَ نَقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنبَائِهَا » ، « تِلكَ من أَنْبَاءِ الغَيْب نُوحِيها إليكَ مَا كُنتَ تَعلَمُهَا أَنْتَ ولا قَومُكَ مِن قَبل هذَا فَاصبِر إن العَاقِبَةَ للمُتَّقِين » .
وكذلك قد تنبأ بحوادث ثم وقعت بعد أن قال بها في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته مثل : « لَتَدْخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ إن شَاءَ اللهُ آمِنين مُحلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ومُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ» ، « آلم غُلبتْ الرُّومُ . في أدْنَى الأرضِ وهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون . في بِضْعِ سِنِين » .
وفي أكثر من عشرين آية .

ومما يميز القرآن على غيره أنه لا يقرر حقائق قبل أن يورد أدلتها العقلية المنطقية ، فيسوق البراهين فإذا بالحقائق تظهر واضحة جلية فلا يسع الإنسان إلا أن ينطق بها وقد آمن تماماً، مثل :

« قُل من يَرزُقكم مِنَ السّماءِ والأرض أمّن يَملِك السّمعَ والأبصَارَ وَمَن يُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخرِج المَيِّتَ من الحَيِّ ومَن يُدَبِّرُ الأمرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُل أفَلا تَتّقُونَ » ، « قُل لِمَن الأرضُ وَمَن فِيها إن كُنتم تَعلمُون، سَيقُولُونَ للهقُلْ أفلا تَذَكّرونَ . قُلْ مَن رَبُّ السّموَاتِ السّبعِ ورَبُّ العَرشِ العَظِيم ، سَيَقُولُونَ للهِ قُل أفلا تَتقُونَ. قُل مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيءٍ وَهُوَ يُجِيرُ ولاَ يُجَارُ عَلَيهِ إن كُنتُم تَعلَمُونَ ، سَيقُولُون للهِ قُل فأنّى تُسحَرُونَ » .

وكذلك فإن من إعجازه تلك الخشية التي تلحق بسامعه ، والتي لا يمكن أن تزول بتكرار الاستماع إلى القرآن ، بل إنها تزيد كلما زاد استماعه إليه :

« اللهُ نزّل أَحسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشابهاً مَثَانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَونَ رَبّهُم ، ثُم تَلِينُ جُلودُهُم وَقُلُوبُهم إلى ذكر الله ، ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، ومَن يُضلل اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَاد » .

ومخاطبته للخاصة والعامة وقدرة كل على تفهمه ؛ لذلك وجد أنه ميسر للحفظ حتى أن الأطفال ليحفظونه كله في سن لا يستطيعون فيها استيعاب جزء صغير من كتاب غيره ، وصدق الله العظيم الذي يقول :

« وَلَقد يَسَّرنَا القُرآن للذِّكرِ فهَل مِن مُدَّكِرٍ »

كما أن العلماء قد أثبتوا أن في القرآن موسيقى يلمسها القارىء ويحس بها المستمع ، حتى ولو لم يكن يفهم لغته ، هذه الموسيقى تظهر واضحة في مقاطعه وفواصله بل وفي سوره وآياته .

ومن أوجه إعجازه تشريعاته التي أشرق نورها عالياً في عصر التقنين والتشريع عندما اتجهت الدول إلى وضع القوانين والتشريعات ، فوضح أن القرآن كتاب لا يقارنه غيره فيما اشتمل عليه من هذه الناحية ، وهذا إعجاز يقنع العرب وغيرهم ، ويستمر هذا الوجه من الإعجاز ما وجدت على الأرض بشرية تحتاج في معاملاتها إلى تشريعات ولوائح وقوانين ، فقد تضمن القرآن الكريم كل تشريعات تضمن حقوق النوع الإنساني ؛ ففيه حق المقاتل ، وحق الأسير ، وآداب الجهاد وتبعاته ، وحق الأبوة والبنوة ، وخص القرآن الكريم المرأة بسورة كاملة قرر فيها حقوقها وأوضح واجباتها . لقد وضع أسس حقوق الإنسان قبل أن يفكر العصر الحالي في هذه الحقوق . ولقد تعددت الشهادات للقرآن ، فعلاوة على ما اعترف به الأفراد والجماعات يقرر مؤتمر متشرعي العالم الذي عقد في لاهاي أن شريعته تحمل

العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن .
ثم يقرر ذلك نقيب المحامين في باريس في مؤتمر المجمع الدولي للحقوق المقارنة ، الذي عقد في يوليه ١٩٥١ عندما استعرض المؤتمر أعمال أسبوع الفقه الإسلامي ، فيقول ما نصه : « أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلاحه أساساً تشريعياً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور ، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء » ،
ثم يقرر المؤتمر العالمي القرار الآتي نصه : « إن المؤتمرين، بناء على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت أثناء أسبوع الفقه الإسلامي، وما جرى حولها من المناقشات التي يستخلص منها بوضوح أن مبادىء الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها ، وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ومن الأصول الحقوقية هي مناط الإعجاب وبهما يتمكن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها – يأملون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

أما شهادات الخصوم ، فهي الاعتراف المطلق الكامل بإعجاز القرآن الكريم ، فيقول هنري دي كاستري : « لو لم

يكن في القرآن غير بهاء ، معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلاً على صدق رسالته ، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار التي يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله » . ويقول كلود فارير : « إن آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها ، ففيها نغمة ظاهرة عجيبة لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد » . ويقول جبيوس : « القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسي ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التي عليها تدور حياة النوع الإنساني وترتيب شئونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامي ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية » . أما بورت سميت فيقول : « من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس في وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، فإنه مؤسس لأمة وإمبراطورية وديانة ، ومع أنه أمي فقد أتى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة والدين في آن واحد ، وهو الكتاب المقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية وحقاً إنه لمعجزة » . ولا يتسع المجال حتى للاشارة إلى من اعترفوا بإعجاز القرآن الكريم من خصوم الإسلام .

فهل ينتهي إعجاز القرآن الكريم عند هذا الحد ؟ كلا .

إن إعجازه لا نهاية له ، فان من أهم أوجه إعجازه الوجه العلمي ، وهو الذي يعتبر دليل الإعجاز لغير العرب على طول الزمن . ففي القرآن الكريم ما يقرب من ٧٥٠ آية علمية كل ما كتب في تفسيرها إنما كان يحمل إعجازها في وقتها . وكذلك من إعجازه أن تراه صالحاً واضحاً متمشياً مع كل تقدم فكري في أي عصر من العصور . وعندما وصلت العلوم إلى هذه الطفرة التي ميزت عصرنا الحالي باسم العلم وجدنا أن القرآن الكريم يسبق كل قطاعات العلوم فيقرر الحقائق ويطالب بالدراسة والنظر ، فيكون تبليغ الدعوة لغير العرب إنما بتفسير الآيات العلمية تفسيراً يوضح ما جاء في الحقائق العلمية ، وليست النظريات والفروض . إن كل تقدم في العلوم يضيف إلينا كل يوم مادة جديدة للتفسير يتضح بها إعجاز القرآن العلمي ، بل إن هناك في القرآن الكريم آيات علمية لم يصل العلم بعد إلى الكشف عن أسرارها لقصوره ، وعندما تتقدم العلوم ويكتشف جديد في ميادينها سنرى لهذه الآيات تفسيراً جديداً في ضوء هذه الحقائق العلمية ، وذلك مثل الآية الشريفة :

« وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كلَّ شيءٍ حَيّ » ، و « يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخرِجُ الميِّتَ من الحَيِّ » .

لقد سبق القرآن الكريم في علم الفلك حيث قرر كروية الأرض في آيات كثيرة مثل :

« والأرْض بَعدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »

وحركة الشمس والقمر والأرض في مثل الآية :

« والشَّمسُ تَجرِي لِمُستَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ . والقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ . لا الشَّمسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »

وفي الجاذبية نرى آيات كثيرة مثل :

« إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّموَاتِ والأرضَ أن تزُولاَ » ، « اللهُ الذِي رَفَعَ السَّموات بِغَيرِ عَمد تَرَوْنَها » .

ونزول المطر بتلقيح السحب في الآية :

« وَأَرسَلْنَا الرِّيَاحَ لواقِحَ فَأنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً فأسقَيْنَا كُمُوهُ ومَا أَنْتُمْ لهُ بِخَازِنِينَ » .

ويسبق علم خلق الإنسان بعشرات المئات من السنين : فحقائق خلق الإنسان كما جاء بها العلم الحديث سبق القرآن إليها ، فيقرر أن الإنسان يتكون من عناصره التي يتكون منها التراب في الآية :

« وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَاب ثُمَّ إذا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » ، ويوضح القرآن طريقة خلق النسل في الآية : « ثُمَّ جَعَلَ نَسلهُ مِن سُلالة من مَاءٍ مَهِينٍ » ، ويقرر حقيقة علمية هي كيفية التلقيح ومن أين يخرج ماؤُه في آيات :

«فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ. يَخرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلبِ والترائِبِ» . ويوضح شكل البويضة بعد إخصابها والتطور الذي يحدث في شكلها في الآية الشريفة :
« ولَقَد خلَقنا الإنسَانَ مِن سُلالَة مِن طينٍ ، ثم جعَلنَاهُ نُطفَةً في قرَارٍ مكينٍ ، ثم خلَقنَا النُّطفَة علَقةً ، فخَلقنَا العلَقة مُضغَةً ، فخلَقنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فكَسونَا العِظَامَ لحماً » .

ويحرم القرآن الكريم على الإنسان الميتة والدم ولحم الخنزير ، ويتضح بعد القرون العديدة أن هذا أساس الصحة الوقائية . وينادي بعدم الإسراف في الأكل والشرب ، وهذه أحدث نظريات الطب الوقائي والعلاجي . وسبق القرآن العلم في علم الطب النفسي والطب الاجتماعي ، فالتحليل النفسي لا يصل إلى ما تنصح به الآية الشريفة :

« وَمَن يَعمَل سوءاً أَو يَظلم نفسَهُ ثم يستَغفر الله يجِد الله غفوراً رحيماً » . وصنف القرآن الكريم الأحياءَ وقرر نظريات تحطيم الذرة وسبق العلم إلى دراسة الفضاء والنظر في الكواكب في مثل الآية : « قُلِ انظُرُوا مَاذا في السّموَاتِ والأرضِ ، وما تُغني الآياتُ والنذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤمنون » .

وبعد أربعة عشر قرناً يجتمع علماء العالم لدراسة السماء في سنة أسموها السنة الجيوفيزيقية وكان ذلك في عام ١٩٥٨ ، ويقرر القرآن الكريم وجود أحياء في الكواكب الأخرى ولم

يصل العلم في ذلك إلا إلى أدلة أولية وذلك بنص آيات كثيرة مثل :

« ومن آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأرض ومَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّة » .

وكل ما استجد من حقائق علمية في أي علم من العلوم نرى أن القرآن قد سبق إليها ، وقد سبق أن أوضحنا تفصيل ذلك في كتبنا السابقة ، فليتفضل بالرجوع إليها من أراد زيادة في الإيضاح .

هذا هو القرآن الكريم ، وهذه بعض أوجه إعجازه . . فهل يمكن لبشر مهما أوتي من الفصاحة والعلم والحكمة والمعرفة أن يجتمع عنده بعض ما جاء به القرآن ؟ . . وكيف يصل إلى حقائق لم تعرفها الدراسات العلمية إلا بعد اكتشاف الأجهزة والآلات بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرناً ؟ وكيف يقرر حقوقاً وواجبات في زمن لم يكن يعرف الحقوق ولا الواجبات ، ثم يظل ما جاء به فوق مستوى كل قانون أو تشريع على الدوام ؟

فكيف إذا كان من نطق به أمياً لا يقرأ ولا يكتب ؟ . . إن أمية الرسول عليه الصلاة والسلام ليست في حاجة إلى أدلة لتأكيدها أو شواهد لإيضاحها .

فها هو ذا عليه الصلاة والسلام يأتيه رسول الوحي أول مرة فيقول له : اقرأ ، فيجيبه : ما أقرأ ، ثم يكررها ثلاثاً ويؤكدها ثلاثاً ، فهل يكذب الإنسان على نفسه ؟ . . ويكذب على ربه ؟ . .

ثم ها هي خديجة زوجته التي عاشت معه قبل الدعوة خمسة

عشر عاماً تقاسمه حياته ، وهذا علي ابن عمه الذي لازمه في داره ، ثم صحـــابته الذين يعرفونه معرفة أكيدة ، وعاشوا معه مدداً طويلة ، وآمنوا به ، وخصومه الذين يريدون حربه والنيل منه بباطل ، كل هؤلاء يستمعون إليه وهو يتلو عليهم آيات قاطعة تشهد بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب مثل الآيات الشريفة :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ، الذي يَجدونَهُ مكتوباً عندَهُم في التَّوراةِ والإنجيلِ يأمرهُم بالمعروف ويَنهاهم عن المُنكرِ ويُحلُّ لهُمُ الطَّيباتِ وَيُحرِّمُ عَليهمُ الخبَائِثَ ويَضعُ عَنهمُ إصْرَهُم والأغلاَلَ التي كانَت عَليهم » ، « قُل يأيُّها النَّاسُ إني رسُولُ اللهِ إليكم جَميعاً الذِي لهُ مُلكُ السَّموات والأرضِ لا إلهَ إلا هُوَ يُحيي ويُميتُ فآمِنُوا باللهِ ورسولِهِ النَّبيِّ الأمِّيِّ الذِي يُؤْمِنُ باللهِ وكلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لعلكم تهتدُونَ » .

فهل لو علموا فيه غير الأمية الكاملة — حتى ولو قليلاً من المعرفة — كانت تظل صحابته على ما هي عليه من تصديقه والإيمان به واتباعه أو الوقوف بجواره في شدته وعسرته ؟

ثم هل قرر التاريخ أن محمداً وهو رسول الله الذي يدعو إلى خير دعوة ، كتب مرة إلى ملوك أو قادة أو إلى أتباع إلا عن طريق كُتَّابه ؟ لقد كان يدعو أنصاره ممن يعرفون الكتابة فيكتبون له ويختمون الكتب بخاتمه الشريف .

إن أمية محمد ليست موضع شك ولم يتنازع بشأنها اثنان ، وها هو ذا هـ. ج. ويلز الذي حارب الإسلام ونبي الإسلام يعترف في مؤلفه (معالم تاريخ الإنسانية) بأمية الرسول فيقول : « حدث في مكة قرابة عام ٥٧٠ م أن ولد محمد مؤسس الأسلام وكان ضئيل الحظ من العلم ، ولو أنه قيس بمعايير الصحراء لكان غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقاً » .

هذا هو النبي الأمي . . وهذه هي معجزته الخالدة . .

أفلا يكون بذلك محمد رسولاً نبيّاً ؟ . .

* * *



ليس للدعوة أغراض شخصية

« يَا قَوْمِ لاَ أسألُكُم عَلَيهِ أجراً ، إن أجرِيَ إلاَّ على الَّذِي فَطَرَنِي ، أفَلا تَعقِلُونَ ؟ ! » .

(سورة هود ـ ٥١)



إذا لم تكن رسالة الإسلام وحياً من الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانها تكون دعوة شخصية قام بها ، ولا يمكن أن تكون غير واحد من هذين الأمرين . . فان كانت دعوة شخصية فاما أن يكون قد قصد بها تحقيق أهداف خاصة ، كنفع مادي أو كسب لمركز أدبي أو للأمرين معاً أو نحو ذلك من عروض الدنيا ، فهل سعى محمد عليه الصلاة والسلام إلى ذلك ؟ . .

كان سيدنا محمد يشتغل برعي الغنم منذ حداثته ، وذلك باتفاق السير والتواريخ ، وبصحيح حديثه الذي يقول فيه : « بعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم ، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد » . وظل يرعى الغنم مدداً طويلة ، ولا بد أنه قد أصاب من وراء ذلك مكسباً مادياً ، فقد كان رعي الغنم من وسائل الارتزاق المشهورة عند العرب ، فمعظم الثروات عندهم تتمثل في الغنم . ثم خرج وهو في باكورة شبابه للتجارة ، ولم يكن يتجر لحسابه حتى يحتمل الخسارة مع المكسب ، ولكنه كان يخرج

على تجارة غيره ، الأمر الذي يضمن له عن طريقها ربحا مادياً مؤكداً . ولما كان قد اشتهر بين قومه بالأمانة فقد أقبل عليه كبار تجار قريش يطلبونه للخروج على تجارتهم ، ثم خرج على تجارة خديجة التي كانت قيمتها تعادل قيمة تجارة قريش مجتمعة ، أي أنه كان يخرج على نصف تجارة قريش كلها ، وكان نصيبه في الرحلة الواحدة ضعف ما كان يحصل عليه أكبر رجل خرج على أكبر تجارة . لقد أصاب محمد ثروة لا شك فيها قبل الرسالة ، ومما يؤكد ذلك عندما أصيبت قريش بأزمة مالية عنيفة ذهب إلى عمه العباس وكان من أكثر بني هاشم يساراً وقال له : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف من عياله ، آخذ من بنيه رجلاً ، وتأخذ أنت رجلاً ، فنكفلهما عنه » . وأخذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب وأخذ العباس جعفراً . . ألا يدل هذا على أن النبي كان في يسر عمه العباس أو على الأقل انه كان في حالة من اليسر سمحت أن يكفل عن عمه أبي طالب ولده ؟ . . ثم ما دفعه صداقاً لزواجه من خديجة وقدره عشرون جملاً . . ألا يؤكد لنا أنه كان في سعة من المال ، إذ لم يكن هذا القدر من الصداق شائعاً إلا بين كبار الموسرين .

إن هناك من الشواهد المؤكدة والأدلة القاطعة ما يثبت أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على جانب من الثراء قبل بعثته ، وأن المال لم يكن ليهتم به إطلاقاً ، فإنه لما أرسل مولاه

زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة بعد أن هاجر من المدينة ببعيرين ليحضرا زوجته سوده وابنتيه وهبهما خمسمائة درهم .

ولقد ظل الرسول طوال مدة رسالته تجتمع عنده الأموال من الغنائم والجزية ومن نصيبه المحدد له منهما ، فينفق ذلك على المسلمين وعلى المحتاجين حتى ولو كانوا من غير المسلمين ، بحيث لا تغرب الشمس وفي داره دينار أو درهم ، حتى أنه في مرضه الأخير نادى الأنصار وأعطاهم ما بقي لديه من مال ليوزعوه بينهم ، وقال قوله المعروف : « ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده ؟ » . . ترى كم كانت ثروته التي أراد أن يوزعها قبل موته ، والتي بقيت بعد حياة دامت ثلاثة وستين عاماً . . سبعة دنانير . . ولا أكثر من ذلك .

إننا لو تدبرنا آيات القرآن الكريم التي تلاها الرسول على قومه ، وأحاديثه التي تحدث بها لصحابته ، نجده يدعو إلى الإنفاق وإلى الصدقات، ويطالبهم بالتحرر من استعباد المال لهم في مثل الآيات :

« والَّذِينَ يَكنزُون الذَّهبَ والفضَّةَ ولا يُنفِقونَها في سَبيل الله فبَشرهُم بِعذَابٍ أَليم . يومَ يُحْمَى عَليهَا في نارِ جَهنَّمَ فتُكوَى بها جِباهُهُم وجُنوبُهم وَظهُورُهُم هـَذا مَا كنزتُم لأَنفُسكُم فذُوقُوا مَا كُنتُم تَكنِزونَ » ، «الَّذِينَ يُنفِقُون أَموَالهُم بالَّليلِ والنَّهارِ سِراً وَعَلانِيةً فَلهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهم ولا خَوفٌ عَليهم ولا هُم يَحزنُونَ » ،

« إنما أموَالكُم وأولادُكُم فتنةٌ واللهُ عِندَهُ أجرٌ عَظيمٌ ».

والآيات المشابهة كثيرة . وتقرر الآية ٨٨ من سورة التوبة حقيقة مؤكدة وهي جهاد الرسول بماله في سبيل الله إذ تقول :

« لكِنِ الرَّسولُ والذينَ آمنوا مَعَهُ جاهَدُوا بأمْوَالِهِمْ وأنفسِهِمْ وأُولَئكَ لهمُ الخيراتَ وأُولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

أما أحاديثه صلى الله عليه وسلم فكثيرة ، منها مادعا فيه إلى البذل والجود بالمال، مثل ما روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد عن النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ، وَلَجَاهلٌ سخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل » . ومنها ما حبب في الزهد مثل : « إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه » ، وما قاله لحارثة إذ جاء للرسول يوماً وقال : « يا رسول الله أنا مؤمن حقاً » . قال له الرسول : « وما حقيقة إيمانك ؟ » . أجاب : « عزفت عن الدنيا ، فاستوى حجرها وذهبها ، وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً » . فقال عليه الصلاة والسلام : « عرفت فالزم . عبد نور الله قلبه بالإيمان » ، وكذلك مثل حديثه : « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا » .

ويقرر التاريخ أن النبي قام بعمل لم يقم به غيره على وجه الإطلاق ، فقد كان يقضي دين المسلم الذي يموت ولا

يترك مالا يقضي به الورثة الدين ، فروي عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » .

فهل كان هذا النبي وهذه أحاديثه وهذا بعض من وصاياه يبغي المال ؟ . . وها هو ذا يبدأ الرسالة وهو على جانب من الثراء ثم يموت فلا يترك شيئاً .. فكيف يكون هدفه جمع المال؟. لقد كان يتلو على صحابته كلام الله يدعوهم فيه إلى البذل والجود وعدم جمع المال .. فهل كانوا يتبعونه لو عرفوا عنه أنه يدعوهم إلى ما لا يكون هو القدوة لهم فيه ..

إذا لم يكن النفع المادي من أهداف الرسول إذ قام يدعو إلى الإسلام .. فهل هي الرغبة في المركز الأدبي والسيادة على القوم ؟ ..

لا يختلف اثنان في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحدر من أكرم سلالة وأعرق أصول ، وأن قريشاً كانوا سادة العرب ، فهم أهل الحرم ، ومحمد هو سيد قريش قاطبة وابن سيدهم وحفيد كبيرهم ، أما زوجته خديجة فقد كانت موضع إجلال العرب واحترامهم لما امتازت به من خلق كريم وعقل راجح وأصل عريق علاوة على ثرائها وكثرة مالها .. فكل إنسان يتمنى لو وصل إلى أقل مما كان الرسول فيه .. فهو موضع تقدير العرب كافة ، وزوجته كذلك ، وداره محط أنظار كل طالب رأي ، وبغية كل من أراد معونة

أو من كان في حاجة إلى اكتساب الخلق الكريم .. وهذا ما شاع عن الرسول وعرف عنه وسطره التاريخ وذلك قبل الرسالة .

أما بعد أن جهر بالدعوة فنجده قد لاقى من الأذى ما لا سبيل إلى بيانه ، حتى إن اقاربه وأهاه كذبوه ، ومنهم من اتخذت عداوته له شكل الاعتداء ، اما بقية قريش فانها انقلبت تسبه وتحاربه وتعتزم قتله .. فهل كانت دعوته دعوة يهدف بها إلى سيادة أو مركز ادبي ؟ ، إنه بعد أن كان الأمين الصادق .. أطلقوا عليه الأقاويل والأكاذيب ، وبعد أن كان مجلسه يضم القادة العظماء إذ به يقرب إليه المساكين والفقراء قبل الأثرياء والكبراء ..

أكان هذا الرجل وهذه حاله قبل الرسالة وبعدها يبغي رفعة في الدنيا ومركزاً في قومه ؟ ، إن فيما عرضه قومه على عمه أبي طالب ورده عليهم الدليل الذي لا يحتاج إلى غيره لبيان ما كان عليه النبي ؛ فقد مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب وقالوا له : « يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » . ثم إن عمه أرسل إليه وقال له : « يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي ما قالوا ، فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » ، فقال عليه الصلاة والسلام لعمه قوله المعروف : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر

في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ـ ما تركته » .

ثم يذهب إليه عتبة بن ربيعة وكان من أكبر أشراف قريش نيابة عن القوم الذين اجتمعوا في مؤتمر ليعرضوا على الرسول عروضهم التي حملها عنهم عتبة ، إذ جاء إلى الرسول فقال له : « يابن أخي ؟ إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها » ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الوليد أسمع » ، قال : « يابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : فاسمع مني » ، قال : « أفعل » ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمن الرَّحيم . كِتَابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قُرْآناً عَرَبياً لقومٍ يَعلمونَ .

بَشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهم فهُم لا يَسمعُونَ . وقالوا قُلوبُنا في أَكنَّةٍ ممّا تَدْعُونا إليهِ وفي آذانِنَا وقْرٌ ومِن بَينِنا وبَينِكَ حِجابٌ فاعمَل إنّا عامِلونَ. قُل إنما أنا بَشرٌ مثلُكُم يُوحَى إليَّ أَنَّما إلهُكُم إلهٌ واحِدٌ فاستقيمُوا إليهِ واستغفِرُوه ووَيلٌ للمُشرِكينَ »

ثم مضى رسول الله يقرأ إلى آية السجدة فسجد ... فهل كان يبغي هدفاً دنيوياً ؟ ؟

إن الأدلة التي تثبت أن الدعوة لم يكن لها أغراض شخصية أكثر من أن تحصى أو يتسع لها مثل هذا المجال ، فان الرسول لم يدع إلا إلى عبادة الله وحده منزها عن كل شرك بعيداً عن كل زيف ، فان أول ما قاله عند بدء الدعوة وهو في دار الأرقم لينذر عشيرته الأقربين وقد اجتمعوا على طعام له هو : « الحمد لله . أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يابني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يابني تيم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » ، أو كما قال . وكذلك كانت جميع دعواته في أحاديثه وخطبه دعوة إلى تقوى الله كما جاءت في أول خطبة له في أول جمعة صلى فيها بالمدينة إذ قال ما نصه : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، واستغفره وأشهد به ، وأومن به ، ولا أكفره ، وأعادي من

يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنومن الساعة ، وقرب من الأجل؛ من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى المسلم المسلم ، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكر ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكون له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فانه يقول عزوجل :

« مَا يُبدَّلُ القولُ لدَيَّ ومَا أنا بظلاَّم لِلعَبيدِ »

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية ، فانه من يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجوه وترضي الرب وترفع الدرجة ،

خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، عادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم ، فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

ثم هل هناك أبلغ وأدق وأصدق مما قاله الرسول عندما اشتد الجدل بينه وبين اليهود في المدينة ، وإذا بوفد من نصارى نجران قد حضر إليها ، واجتمع المسلمون واليهود والنصارى في أول مؤتمر ضم الأديان الثلاثة يناقشون أديانهم ، فاذا باليهود ينكرون رسالة عيسى ومحمد ويزعمون أن عزيراً ابن الله ، والنصارى يقولون بالتثليث وينكرون رسالة محمد ، وإذا محمد يلقي بالقول الساطع القاطع الحق :

« قُلْ يا أَهْلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبينكم أَلا نَعْبُدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ به شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنَا بَعْضاً أَرْباباً مِن دُونِ اللهِ ؛ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بأنا مُسْلِمُونَ » .

وأحاديثه عليه الصلاة والسلام التي تدعو إلى ذكر الله

وعبادته والتوكل عليه واستغفاره كثيرة ولا تقع تحت حصر مثل : « أبشروا وبشروا من وراء كم أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً دخل الجنة » ، « مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت » ، وما رواه أبو الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ، قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله تعالى » . وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : «كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » .. ومنها : « من استعز بالعبيد أذله الله تعالى » ، « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » .

وكتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري علي . فكتبت إليه : « سلام عليك ، أما بعد ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله

مئونة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . والسلام عليك » .

وكان إذا أرسل رسله إلى بلاد لينشروا فيها الإسلام يقول لهؤلاء الرسل : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » . وينشر لنا التاريخ كتابه إلى معاذ وقد بعثه إلى اليمن ، فقال له ما نصه : « إنك تقدم على قوم أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى ، فاذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . بشر ولا تنفر ، يسر ولا تعسر ، وإن سألوك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

وظل سيدنا رسول الله على ذكر الله والتمسك بالدعوة إلى لحظة وفاته ، فكانت آخر كلماته ذكر الله والدعوة إلى الصلاة ؛ فروى التاريخ أنه في يوم الإثنين الحزين تفرق الناس عن الرسول حينما رأوا تحسناً في حاله وذهبوا إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وفي الضحى المبكر طلب الرسول من نسائه الخروج فقد جاءه جبريل . قالت عائشة « وجاء جبريل فقال : السلام عليك يا رسول الله . هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً . طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان بي في الأرض حاجة غيرك ، وما لي فيها حاجة إلا حضورك » . وبدأ الرسول يدخل في دور الغيبوبة ،

فكان إذا أفاق يقول : لا إله إلا الله .. فلما خرج من آخر إغماءة قال : « بل الرفيق الأعلى .. أيها الناس ، الصلاة .. الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم .. الصلاة .. الصلاة .. ولا إله إلا الله .. » . وقبض الرسول على قول لا إله إلا الله . .

هذه هي أحاديث سيدنا رسول الله التي تؤكد أن هدف الدعوة ينحصر في عبادة الله وحده ، أما تصرفاته عليه الصلاة والسلام في حياته الفردية ومع غيره وفي عبادته فانما تنبعث من القرآن الكريم الذي أنزله عليه الله سبحانه وتعالى، وتلاه على قومه ليكون دستوراً للحياة ، لذلك فإنه لمعرفة ما كان عليه الرسول يكفي أن نرجع إلى القرآن الكريم .. أليس الرسول أول من استمع إلى القرآن وهو يوحى إليه ؟ .. وأليس هو أول من يتبع ما يؤمر به .. فهل دعا القرآن الكريم إلى غير الله ؟ ..

لقد تردد لفظ الجلالة في القرآن الكريم أكثر من ٢٦٤٠ مرة ، غير ما تكرر من صفاته كالغفور والحكيم وقد وردت أكثر من ٩٩ مرة ، والقدير حوالي ٦٢ مرة ، والرحمن ٥٧ مرة تقريباً ، والرحيم فيما يقرب من ١١٥ مرة ، وأنه الخالق في حوالي ١٨٠ آية ، وقد طالبنا القرآن الكريم بعبادة الله حوالي ٢٧٩ مرة ، وكرر العبادة لله وحده ولا نشرك به شيئاً ٢١ مرة ، كما قرر القرآن في كثير من الآيات أن الله سبحانه وتعالى ليس إله أمة بعينها ولا الناس وحدهم بل هو إله كل شيء .

« رَبُّ العَالَمِينَ » ، وأنه هو سبحانه خالق كل شيء : « هُوَ الذي خَلَقَ لَكُم ما في الأرضِ جَميعاً » ، « الذي خَلَق

السّموات والأرْضَ ومَا بَينهُما » ، وأنه جلّ شأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، فليس هناك صغيرة أو كبيرة إلا يعلمها : « وعِندَه مَفَاتحُ الغيبِ لا يَعلمُها إلا هُوَ ، ويَعلم ما في البرِّ والبَحرِ ، وما تسقُطُ مِن وَرَقة إلا يَعْلمها ، ولا حَبّة في ظُلمَاتِ الأرضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِس إلا في كِتابٍ مُبينٍ » ، « إن الله بكل شيء عَليم » . وكل ما حولنا وما نراه انما صدر بأمره وحده : « اللهُ الذي سَخّرَ لكُمُ البحرَ » ، « الله الذي رفعَ السموات بغيرِ عمد ترونها » ، « والله جَعَل لكم الأرض بساطاً » ، « وَهُو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشراً بَين يدي رَحْمته » . ولا يأخذ الأمر منه شيئاً : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كنْ ، فيكونُ » .. وأنه سبحانه وتعالى واحد لا شريك له : « فاعلمْ أنه لا إله إلا اللهُ » ، « وما مِن إله إلا إلهٌ وَاحِد » ، وأنه لم يلد ولم يولد وليس له كفوا أحد : «قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ . الله الصَّمَد . لم يَلدْ ولم يولدْ . ولم يَكن له كُفُواً أحَد » .. ويقرر القرآن الكريم أنه لا كهانة في الإسلام ولا وساطة بين العبد وربه ، فأينما كان المرءُ لا يحتاج إلى أحد ليتصل بربه : « وَهُو مَعكم أَيْنما كُنتم » ، « وَلله المشرِقُ والمغرِبُ فأيْنما تولوا فثَمَّ وجهُ الله » . ما الرسل فليس عليهم إلا البلاغ : « ما على الرسول إلا البلاغُ » ، وليس لهم من الأمر شيء : « ليسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شَيءٌ أو يتُوبَ عَليهم أوْ يُعذِّبَهُمْ » ، « ليسَ عَليكَ هُدَاهُم وَلكنَّ الله يَهدِي مَن يَشاءُ » .

وإذا تدبرنا عدد المرات التي تكرر فيها أسماء الأنبياء والرسل نجد أن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام أقلهم تكراراً ، فقد ورد اسمه خمس مرات بينما ورد اسم إسماعيل ١٢ مرة وداود ١٦ وإسحاق ١٧ وهارون ٢٠ ولوط ٢٧ ونوح ٣٣ وعيسى ٣٨ وإبراهيم ٦٩ وموسى ١٣٦ . فهل كانت دعوة محمد لأغراض شخصية ؟ ، . .

وفي القرآن الكريم آيات عتب الله فيها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد وقف عليه الصلاة والسلام يوماً مع الوليد بن المغيرة يعظه ويحبب إليه الإسلام ، وكان الوليد سيداً من سادات قريش ، فجاءه ابن أم مكتوم — وهو كفيف — يسأله في بعض الأمور ويستقرئه القرآن ، وبالغ في الإلحاح حتى شق على النبي إلحاحه لما شغله عن وعظ الوليد ، فتولى عنه وانصرف عابساً ، فأنزل الله عتابه في الآيات :

« عَبَسَ وتَوَلّى . أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى . ومَا يُدريكَ لعَلّه يزَّكّى . أَو يذّكّرُ فتنفعَهُ الذّكرَى . أمّا مَن استَغنَى . فَأَنْتَ لَه تَصدَّى . ومَا عَليكَ أَلا يزّكّى . وأمّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وهُو يَخْشى . فَأَنْتَ عَنْه تَلهّى » .

كما أنه عليه الصلاة والسلام أذن لبعض المستأذنين في التخلف في غزوة تبوك فعاتبه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذِنتَ لَهم حتّى يَتَبيّنَ لَكَ

الّذِينَ صَدَقُوا وتَعلَمَ الكاذِبينَ » . وكذلك في مثل الآيات :
« وَإِذْ تَقُولُ لِلذي أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِ وأَنعَمتَ عَليهِ أَمسِكْ عَلَيكَ زَوجَكَ واتّقِ اللهَ وَتُخفِي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبدِيهِ وتخشَى النّاسَ واللهُ أَحَقّ أَنْ تخشَاهُ » ، « وإِنْ كادُوا لَيَفتِنُونكَ عَن الذي أَوحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفتَرِيَ عَلَينا غَيرَهُ وإِذاً لاتخذُوكَ خَلِيلاً . وَلولا أَن ثَبّتناك لَقدْ كِدتَ تَركَنُ إِليهم شيئاً قَليلاً . إِذاً لأَذَقناكَ ضِعفَ الحَياةِ وَضِعفَ المَمَاتِ ثُمّ لا تَجدُ لكَ عَلينَا نَصِيراً » ، « ما كانَ لِنَبِيّ أَنْ يَكونَ له أَسْرى حَتى يُثخِنَ في الأَرضِ » .

ويقرر القرآن الكريم في آيات كثيرة أنه ليس إلا ما شاءَ الله وليس ما أراد النبي مثل : « إِنّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبت ولكنّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشاءُ وَهو أَعْلمُ بالمُهْتدِينَ » ، « اسْتغفِرْ لهُم أَو لا تَسْتغفِر لهم إِنْ تَستغفِر لهم سَبعِينَ مَرّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهُم » .

ولقد كان القوم قبل الإسلام يبالغون في أقدار أنبيائهم حتى أنهم اعتبروهم أبناء الله وذلك بنص الآية الشريفة :

« وقالت اليَهُودُ عزير ابن الله ، وقالتِ النّصارَى المسيحُ ابنُ الله ذلك قَولُهُم بأفواهِهِم يُضاهِئُونَ قَولَ الذينَ كَفَرُوا مِن قبلُ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ » . فكرر القرآن الكريم في آيات مختلفة أن سيدنا رسول الله إنما هو بشر مثلهم وذلك في مثل الآيات : « قُلْ إِنّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم

يَوحَى إليَّ أنما إلهُكُم إلهٌ وَاحدٌ فمَن كانَ يَرجُو لقَاء رَبِّه فَليَعْمَل عَملا صَالحاً ولا يُشرِك بِعِبادَة رَبِّه أَحَداً» ، « ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تنَزلَ علَينا كتَاباً نقرؤه ؛ قل سُبْحانَ ربِّي هل كنتُ إلا بشراً رَسُولا » ، « وَمَاجَعَلْنا لبَشَرٍ من قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهمْ الخالِدُون » .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر أنصاره من أن يعتبروه أكثر من بشر مثلهم ، وما أجمل وصيته وأحق نصيحته التي يقول فيها لأتباعه : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ، إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله » . أفكان يبغي مركزا بين قومه وسيادة على أتباعه ؟ .

هذه هي دعوة محمد . أكان يهدف من ورائها إلى نفع مادي أو كسب دنيوي أو مجد شخصي ؟ . لقد تغير حاله بالرسالة من حياة كريمة مستقرة هادئة إلى هجرة وجهاد وبذل وتضحية بلا أغراض شخصية أو مطامع دنيوية أو منافع ذاتية .

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبياً ؟ .



الحاجة إلى رسالة الإسلام

« إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤْمِنِينَ الذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لهُمْ أَجراً كبيراً».

(سورة الإسراء — ٩)



يقول المؤرخ العالمي هـ . ج . ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) عن حالة أوربا في عام ٥٠٠ ميلادية أي في القرن السابق لرسالة الإسلام ما نصه : « كانت الحياة اليومية لذلك الزمان تتقلب في مستوى خفيض جداً، ولا جرم، من النواحي الجسمانية والذهنية الخلقية ؛ وكثيراً ما يقال إن اوربا قد انحدرت إلى الهمجية في القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال ، والأصح كثيراً أن يقال إن مدنية الإمبراطورية الرومانية قد انتقلت إلى دور انحلال خلقي متطرف. والهمجية «البربرية» نظام اجتماعي ذو طراز أولي منظم داخل حدوده ، بيد أن حالة أوربا من دون أشلائها السياسية كانت حالة فوضى اجتماعية . ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين بجنوب إفريقيا ، بل معنويات حي فقير في إحدى المدن . ففي القرية المتوحشة يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع ويعيش ويتصرف وفقاً لهذا ، أما في حي الفقراء فان الفرد لا يعرف أي كائن أكبر منه ، ولا يتصرف ناظراً للعلاقة بذلك الفرد . إننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يكفل لنا أن نخبرك بأنه لم يكن مجرد عصر من الحرب واللصوصية بل عصر مجاعـــة

ووباء . فان تخريب أتيلا لإيطاليا الشمالية أوقفه انتشار الحمى في عام ٤٥٢ ، وحدث وباء عظيم من الطاعون قرب نهاية حكم جستنيان عام ٥٦٥ كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا ضد اللومبارد ، وفي عام ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد في القسطنطينية . ويقول جيبون : « إن هذا العدد كان يموت كل يوم » . ولقد حدثت أربعة أوبئة في أقل من عشرين سنة ، ويقرن جيبون الوباء الجستنياني بما دُهِيَ به العالم من المذنّب العظيم عام ٥٣١ ، وبالزلازل المتتابعة الخطيرة فيقول : « غودر كثير من مدن الشرق خالياً ، وذبل المحصول في كثير من أصقاع إيطاليا ». لقد حدث نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار الدنيا ، وقد بدا للكثيرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة كان على وشك الزوال » .

ونقرأ في التاريخ العام للافيس ورامبو : « كانت أوربا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، تنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة تجتاح النـــاس وتحصدهم ، وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف منظمة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة . وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة

واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال . وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة . وكان السرير عندهم كيساً من القش فوقه كيس من الصوف يجعل مخدة أو وسادة . ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . قال درابر : « كان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وقد زارت أوربا مراراً فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام قليلة » .

أما عن العرب فيقول فيهم ابن خلدون : « فهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر . والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم ، وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم . وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أثافي للقدر ، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، وليست لهم عناية

بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً، فاذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم . وهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغاظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة . والمباني التي يختطونها يسرع إليها الخراب لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي ، فانه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية . وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس ، فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لهم أتى عليها الخراب والانحلال » .

هذه هي حالة العالم الاجتماعية قبل الإسلام ، أما الدين فقد كان أمره عجيباً ، فكتبه حورت وحقائقه شوهت ، فعن اليهودية يقول طه المدور في كتابه (بين الديانات والحضارات) : « إن اليهودية لم تكن إلا عبارة عن شرعة دنيوية مادية لا تمت إلى تعاليم سيدنا موسى عليه السلام إلا بصلة الاسم فقط ،

فالأنانية ، وحب الثراء ، وصنعة التنجيم والسحر ، وإكبار شأن الروح والمادة ، وإرسال الغموض على يوم الحشر والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التي أتى بها موسى الكليم صاحب الرسالة الموسوية الأصلية وناقل التوراة وتعاليمه الربانية إلى أهل الضلال » . أما المسيحية فيقول بشأنها المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في كتـــابه (حيـــاة محمد) : « بدأت هذه المسيحية تتعدد مذاهبها وينقسم كل مذهب على توالي الزمن فرقاً وأحزاباً ، وصار لكل شيعة في أوضاع الدين وأسسه رأي يخالف رأي الشيعة الأخرى . وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأي تنكراً أنتج العداوة الشخصية التي تلمسها حيثما دب الضعف الخلقي والذهني إلى النفوس فجعلها سريعة إلى الخوف ، سريعة لذلك إلى التعصب الأعمى ، والجمود القتال . كان من بين الطوائف المسيحية في تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى جسداً يزيد على طيف يتبدى به للناس . وكان من بينها من يزاوجون بين شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج إلى كثير من كد الخيال والذهن لتصوره. وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم ، على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال في كل أمة وعصر يقف عند الألفـــاظ والأعداد ، يسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعاني ، ويضفي عليه من الأسرار ، ويحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه المنطق ولا تسيغه إلا سفسطة الجدل العقيم . قال أحد رهبان الكنيسة :

« كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل ، سواء في ذلك الأسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود ، وباعة الأطعمة ، فأنت تريد أن تبدل قطعة من ذهب ، فاذا بك في جدل عما خلق وما لم يخلق . وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الأب أعظم من الابن والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حمامك وهل ماؤه ساخن ؟ ؟ فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم .

ولعل مما يوضح مدى الخلاف بين المسيحيين ، عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ الذي اجتمع فيه ألفان وثمانية وأربعون من البطاركة والأساقفة كانوا مختلفين في الآراء والأديان . وقد يرجع ذلك إلى الحرب التي شنها اليهود على المسيحيين بلا رحمة أو شفقة ، أو إلى ما أوقعه الملوك والقياصرة بالمسيحيين من عهد نيرون إلى تراجان إلى ديسيوس ودقلديانوس أو إلى الأمرين معاً . .

أما أديان العرب فخير وصف لها ما قاله الأستاذ محمد كرد علي في كتابه (الإسلام والحضارة العربية) إذ يقول : « كانت أديان العرب متشعبة بحسب الممالك التي يجاورونها والأرض التي ينتجعونها وهم في أديانهم على صنفين : الحمس والحلة ، فأما الحمس فكانوا يشددون على أنفسهم في دينهم فاذا نسكوا لم يسلئوا سمناً ولا يجزون شعراً ولا ظفراً ولا يمسون النساء ولا الطيب ولا يأكلون لحماً . وأما الحلة فكانوا على العكس من ذلك ينعمون بالطيبات كلها لا يبالون ما صنعوا ، ثم دخل قوم

في دين اليهود وفارقوا هذا الدين ، ودخل آخرون في النصرانية وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية ، وزعم اليعقوبي أن اليمن تهودت بأسرها ، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان وقوم من جذام . وكان من العرب من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء ، ويقول : مطرنا بنوء كذا ، ومنهم من أنكر الخالق والبعث ، وقالوا : ما يهلكنا إلا الدهر ؛ وهم الدهريون . وقال بعضهم : كانت المجوسية في تميم ، والزندقة في قريش أخذوها من الحيرة . ويقول ابن الأثير : إن ديار تميم كانت تجاور بلاد الفرس وهم تحت أيديهم والمجوسية في الفرس . على أن العرب قبل الإسلام كان كثير منهم قد تنصر كتغلب وبعض شيبان وغسان ، وكان منهم من صار مجوسياً وهم قليل ، وأما اليهودية فكانت باليمن . وكان من العرب صنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث ، وصنف عبدوا الأصنام وأصنامهم مختصة بالقبائل ، ومنهم من يعبد الجن ، ومنهم من يعبد الملائكة . وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون وللعرب أصنام : فكان سواع لهذيل ، وود لكلب ، ويغوث لمذحج وقبائل من اليمن ، ونسر لذي كلاع بأرض حمير ، ويعوق لهمدان ، واللات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وجميع بني كنانة . ومناة للأوس والخزرج وغسان ،

وهبل كان في الكعبة ، وكان أعظم أصنامهم ، وإساف ونائلة كانا على الصفا والمروة ، وسعد لبني ملكان ابن كنانة . وكان عدد الأصنام في الحرم بضع مئات » . وهل تبلغ محنة العقيدة قدر ما بلغت عند العرب إذ كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين ماتوا في شهر ، فجزع عليهم ذوو قرابتهم ، فعملوا لهم خمسة أصنام على صورهم ، فمضت ثلاثة قرون وهم يعظمونها ثم عبدوها من بعد .

ومن مظاهر انحلال الدين في العالم اتخاذ النساء متعاً بلا عقود زواج وبدون نظر إلى درجة القرب بين الرجل والمرأة .. فقد يتزوج الرجل زوجة أبيه ، وقد يتزوج زوجة غيره . كما انتشر في بلاد العرب وأد البنات إذ كانوا يدفنون بناتهم أحياء . كما عمت الفوضى وانتشر الظلم والجور في كل علاقة للإنسان بغيره .

وفي وسط هذا الظلام الدامس الذي شمل العالم ، ومن بين هذه السحب القاتمة التي خيمت فوق سماء البشرية ، ولهداية هؤلاء القوم الذين وصلوا بالإنسانية إلى حضيض الحياة ، أرسل الله سبحانه وتعالى خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وأوحى إليه قرآناً عربياً ليخرج الناس من هذه الظلمات إلى النور :

« الر . كتابٌ أَنْزَلنَاهُ إلَيكَ لتُخْرِج النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ بإذنِ رَبِّهمْ إلَى صِراطِ العَزِيزِ الحميدِ » .

وكانت رسالة الإسلام دعوة دينية وثورة اجتماعية ونهضة خلقية هدفها صلاح البشرية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، هي رسالة كل العهود والأزمان ، أليست هي خاتمة الشرائع والأديان ؟ . .

كان أول ما دعا إليه القرآن الكريم ، وهو كتاب الرسالة ، الإيمان بالله الذي يرجع إليه كل أمر ، وأورد صفات الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة لتأكيد الحقيقة الكبرى أنه ليس كمثله شيء ، وأن كل ما في الوجود قد صدر عن إرادته :

« هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هُوَ عالمُ الغيبِ والشّهادةِ هو الرَّحمنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هُو الملكُ القدُّوس السّلامُ المؤْمِنُ المُهيمنُ العَزِيزُ الجبّارُ المتكبِّرُ سُبْحان الله عمّا يشْركُون . هُو اللهُ الخالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لـهُ الأسْماءُ الحُسْنى يُسبحُ لهُ ما في السّموات والأرْض وهُو العزيزُ الحكِيمُ » . وأنه سبحانه لم يلد فيكون شأنه شأن البشر ، ولم يولد فيجري عليه الموت ، فكل من ولد يموت ! « قُلْ هُو اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمدُ . لمْ يَلد ولَم يُولد . ولَمْ يَكُن لهُ كُفُواً أَحَد » . ولما كان الله هو الخالق فكل خلقه عباده ، فكيف يتخذ ولدا : « وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحمنِ أَن يَتّخِذَ وَلداً . إنْ كلُّ مَنْ في السّمَواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرَّحمنِ عبداً » . أليست هذه دعوة التوحيد الخالصة ؟ ! أما هؤلاء الذين عبدوا غير الله فقد أقام لهم القرآن الحجة على فساد ما هم فيه في

آيات كثيرة مثل : « يَـأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لهُ إنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دونِ اللهِ لَنْ يخلُقُوا ذُباباً ولو اجْتَمعُوا لهُ وإن يسلبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لاَ يستنقِذُوهُ مِنه ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطْلوبُ . ما قدروُا الله حقَّ قَدْرِهِ إنَّ الله لَقَوِيٌّ عزِيز » .

ولقد كان بعض العالم قبل رسالة الإسلام يعتقد أن البعث بالروح فقط ، أما أغلبه فيؤمن بأنه لا بعث ولا حساب ، إنما هي حياتهم الدنيا وما هم بعد موتهم بمبعوثين ، فجاءت رسالة الإسلام بحقيقة كبرى هي أن هناك وراء هذه الحياة حياة أخرى وقيامة وحساباً :

« ثُمَّ إنَّكمُ بعد ذَلكَ لميتُونَ . ثمَّ إنَّكُم يوم القِيامةِ تُبْعثونَ » وعندها : « يومئذٍ يصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُم . فمن يعْملْ مِثْقالَ ذَرَّة خَيْراً يرهُ . ومن يعمل مِثقَالَ ذَرَّة شَراً يرهُ » . فهل يمكن للإنسان بعد أن يُؤْمن بهذا أن يعمل إلا الخير ؟ . . لا سيما وأن كل عمله قد سجل في كتاب سينشر يوم القيامة ! « وكلَّ إنْسانٍ أَلزمْناهُ طائِرهُ في عُنُقِهِ ونخرِجُ لهُ يوْم القِيامة كِتَاباً يلْقاهُ منْشُوراً . اقْرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم علَيْكَ حسِيباً » . ولن يغادر الكتاب صغيرة أو كبيرة إلا أوضحها ! « ووُضِعِ الكِتابُ فَترى المجرِمين مُشْفِقين مِمَّا فيهِ ويقُولونَ يـا

ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً »

ولم يعامل الإسلام الناس على أنهم ملائكة فيطالبهم بالانزواء عن الحياة الدنيا والبعد عن طيباتها ، ولم يعاملهم كشياطين لا هم لهم إلا شهوات الدنيا ؛ إنما حث الإنسان على التمتع بالدنيا وخيراتها حلالا بلا إسراف أو اعتداء مع مراقبة الله وتقواه بمثل الآيات :

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ، « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وحرر الإسلام المجتمع من نظام الطبقات الذي كان سائداً فيه ، فقد كان الرق منتشراً انتشاراً واسعاً بحيث أصبحت قلة من السادة تملك الكثرة من الرقيق ، وقد بالغ البعض في تحقير الرقيق إلى درجة أنهم كانوا يعتقدون أن الرقيق ليسوا آدميين

مثلهم ، فحرموا عليهم أن يدفنوا في مقابر تقرب من مدافنهم ، وكانوا يملكون حياة الرقيق إن شاءوا أبقوا عليهم وإن أرادوا سلبوهم حياتهم فجاء الإسلام ليعلن أن النوع الإنساني كله إخوة من أب واحد وأم واحدة ، وأن كل فرد قد خلق كما خلق غيره من ذكر وأنثى ، وأنه لا فارق بين أفراده إلا بالتقوى ، وذلك في مثل الآية :

« يَـأيـُّها النّـاسُ إنّـا خـَلَقـْنـاكم مِـن ذكرٍ وأُنثى وَجعلناكـُم شـُعـُوباً وَقـَبائِـلَ لِـتـَعارَفـُوا إنّ أَكـْرَمكـُمْ عِـنْدَ اللهِ أتْقَـاكـُم إنّ اللهَ عَـلِيمٌ خـَبِيرٌ » .

وفي ضوء هذه الدعوة تحدث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس ، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، فكلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » . ولعل في توجيه الخطاب في الآية والحديث إلى الناس الدليل على أن النداء للجميع أينما كانوا ، وأن الإسلام إنما يهدف إلى إقامة مجتمع عالمي متحرر .

كما حرر الإسلام المرأة من عبوديتها ، فقد اختلفت الآراء قبل الإسلام بشأن المرأة في كل مكان من العالم ؛ فمن هذه الآراء ما كان يقول : إن المرأة لا روح لها ولا خلود ، ومنها ما قال عنها : إنها حيوان نجس يجب أن يكم فمها لأن الشيطان إنما يكمن في لسانها . وكانت المرأة تشترى وتباع كأنها متاع ، وقد تكره على البغاء أو الزواج . وكانت تورث ولا ترث ، فقرر الإسلام للمرأة حقوقها ، وكان القرآن أول تشريع في تاريخ

المرأة ينص على أن لها حقوقاً ، بل لأول مرة في تاريخ البشرية يعلن ان المرأة تشارك الرجل في بنيان الدولة وأن لها مثل الرجل في الأجر :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً من ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأولئكَ يَدْخُلُون الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمونَ نَقِيراً » ، « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالِدَانِ وَالأقْرَبُونَ ولِلنِّساءِ نَصِيب مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأقْرَبُونَ مِمَّاً قَلَّ منْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً » ، « وَلَهُنَّ مِثْلُ الّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف » « وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتبتَغُوا عَرَضَ الْحيَاةِ الدُّنْيَا » . وهل تبلغ الرحمة في وصية قدر ما يوصي الإسلام بالزوجة بأن تكون عشرتها بالمعروف ، وحتى إن كرهها الزوج فلعل في هذه التي يكرهها خيراً كثيراً ، وذلك بنص الآية : « يأيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهاً وَلاَ تَعْضلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إلاَّ أَنْ يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً » .

وإذا كان الزوج والزوجة هما دعامة الأسرة والزواج أول

لبنات المجتمع الذي يتكون من مجموعه الأسر ، لذلك فقد حرص الإسلام على أن تشمل المحبة والرحمة أساس الأسرة في مثل الآية الشريفة :

« وَمِن آياتِهِ أَن خلقَ لَكُم مِن أَنْفسِكُم أَزْواجاً لِتَسكُنوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتَفَكَّرونَ » .

ثم إن ثمرة الزواج إنجاب الأولاد ، ولما كانت الدراسات العلمية تقول إن الإنسان قد غرست فيه محبة أولاده وذلك عن طريق الأب الأول آدم الذي أحس بحب أولاده ولكن لم يكن له أب فيشعر بالحب له ، لذلك كان لا بد أن يطالب الابن بحب أبيه ، فكرم الإسلام الوالدين تكريماً يتجلى في مطالبة الإنسان بالإحسان إليهما ولا ينهرهما ويتلطف في قوله لهما مهما كان الأمر وذلك بنص الآيات :

« وَقَضى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إيّاهُ وبالوالِدَينِ إحْسَاناً ، إمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدكَ الكِبَرَ أَحدُهما أَو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لهُما أُفٍ ولا تَنهرْهما وَقُل لهُما قَوْلا كَريماً . واخْفِض لهما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمةِ وقُل ربِّ ارْحمهُما كما ربّيَاني صَغيراً » .

بل تمتد الرحمة بالوالدين إلى أبعد من ذلك فيوصي الإسلام الإنسان بوالديه ، حتى ولو جاهداه على أن يشرك بالله فلا يقاتلهما ولا يقاطعهما إنما لا يطعهما ويصاحبهما بالرغم من ذلك

في الدنيا معروفاً . وذلك بنص الآيات :

«ووصيّنا الإنسانَ بوالديه حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » .

ودعا الإسلام إلى أسمى ما تدعو إليه الأخلاق ، فطالب بعدم أكل الأموال بالباطل بنص الآية الشريفة :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

ورغبة الإنسان في أخذ أكثر من حقه هي آفة المجتمع أيّاً كان هذا المجتمع ، ويعجز المصلحون في كل عهد عن إصلاح هذه الناحية من الإنسان ، وخطورتها ترجع إلى أنها هي السبيل إلى الرشوة والسحت ، وها هو ذا الإسلام ينهانا عن ذلك في الآية الشريفة :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون »

وأما بصدد العدالة فلا تبلغ أي قوانين وضعية أو وصايا إنسانية قدر ما بلغه الإسلام في الحض عليها ، إذ يطالبنا بالعدل المطلق حتى ولو كان الحق للعدو :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء

بالقِسْطِ . وَلا يَجْرِمَنّكُم شَنَآنُ قَوْم عَلَى ألا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقرَبُ للتّقْوَى » . ولا يقتصر العدل على المعاملة إنما حتى في القول ولو كان على قريب بنص الآية « وَإذا قُلتُم فاعْدِلُوا وَلو كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ، ذلِكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعَلّكُم تَذَكّرُون » .

وشن الإسلام حملة كبيرة على الظلم فبلغت الآيات التي تنهى عن الظلم وتصور أشكاله أكثر من ثلاثمائة آية مثل :

« إنّما السّبِيل عَلَى الذينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَيَبْغُونَ في الأرْضِ بغَيْرِ الحقّ أُولئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيم » .

وأوصى الإسلام بالأمانة وجعل ردها أمراً صريحاً من الله سبحانه وتعالى بنص الآية الشريفة :

« إنّ اللهَ يأمُرُكم أَن تُؤَدُّوا الأمانات إلَى أهْلِهَا » ، « فَإنْ أَمِنَ بَعْضُكم بَعْضاً فَلْيُؤَدّ الذي اؤْتُمن أَمَانَتَه وَلْيَتق اللهَ رَبّه » .

ونبذ الخيانة نبذاً تاماً في مثل الآيات :

« وَلا تَكُن لِلخَائِنِينَ خَصِيماً » ، « وأَنّ اللهَ لا يهْدي كَيْدَ الخَائنينَ » . بل إن الإسلام أمر الإنسان إذا استشعر من قوم خيانة وعمل على دفعها فلا بد أن يشعر الأعداء بذلك حتى يكونوا على بينة من أمرهم ، وذلك بنص الآية الشريفة :

« وإما تخافَنَّ مِن قَوم ٍ خيانةً فانبِذ إليهم على سَوَاء ٍ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائنينَ » .

فهل يبلغ السمو في الأخلاق إلى مثل هذا الحد في أي دعوة مهما كانت ومهما كان الداعي لها إلا دعوة الإسلام .

ولم يترك الإسلام أي جانب في خلق الإنسان إلا أوصى به وأورد أصوله ، فالصبر والوفاء ودفع السيئة بالحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن حتى البيع والشراء ، والاقتضاء والقضاء ، بل تحية المسلم للناس والاستئذان في دخول مسكن ، وكل ما يمس حياة الإنسان بالنسبة لربه أو نفسه أو غيره أو مجتمعه الصغير الذي يتمثل في أسرته أو الكبير الذي هو وطنه أو المجتمع العالمي العام . ولا يتسع المجال لأن نورد أمثلة لآيات الأخلاق في القرآن ، فيكفي أن يتدبر الإنسان أي آية من آيات القرآن ليجد أن فيها دعوة هادفة إلى الخلق الحسن والحياة الكريمة ، بل إن الآية الواحدة تجمع من مكارم الأخلاق ما لو تمسك به مجتمع لكان نموذجاً لحياة مثالية ، العالم كله في حاجة إليها ، ولكنه لا يعرف السبيل إليها ، فان الآية الشريفة ١٧٧ من سورة البقرة والتي نصها :

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمغْرِبِ ، وَلكِنَّ البِرَّ من آمنَ باللهِ وَاليومِ الآخِرِ وَالملائِكة والكتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليتامَى والمسَاكين وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلين وفي الرِّقابِ

وأقامَ الصَّلاة وَآتى الزَّكاةَ والمُوفُونَ بعهْدِهم إذا عاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البأساءِ والضّرَّاءِ وَحِينَ البأسِ أولئكَ الذينَ صَدَقُوا وأُولئكَ هُم المتّقُونَ »

تجمع كل المقومات المثالية لخلق جماعة صالحة متراحمة .

ولم يكتف الإسلام بوضع الأسس الصالحة لبناء المجتمع المثالي من ناحيته الخلقية ، بل حدد النظام الاقتصادي لهذا المجتمع فاذا به يدعو إلى قيام مجتمع يعمل في كل قطاعات العمل :

« وَقُل اعْمَلُوا فَسيرَى الله عَملكُم وَرَسُولهُ »

« ولَقد آتَيْنَا دَاودَ مِنّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبي مَعَهُ والطّيْرَ وأَلنّا لهُ الحديدَ.أنِ اعْملْ سَابِغَاتٍ وقَدِّر في السَّرْد واعملُوا صَالِحاً إنّي بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » ، « فَإذَا قُضِيت الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا في الأرض وابْتغُوا مِن فضل الله واذكرُوا الله كثِيراً لعَلّكُم تُفْلحُونَ » ويكرر القرآن الكريم الدعوة إلى العمل في آيات كثيرة ، وطالب بالإتقان في العمل ، فذكر العمل الصالح ، وطالب بأن يكون عمل كل إنسان متقناً : « إنّ الذينَ آمنُوا وعَملُوا الصَّالِحَاتِ وأَقَامُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكَاة لهُم أَجْرُهُم عِندَ ربّهِم » .

وما أروع حديث سيدنا رسول الله الذي قرر فيه أن من أحسن الظن بالله أتقن العمل إذ نص الحديث : « ليس الإيمان

بالتمني ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوما خرجوا من هذه الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله . كذبوا ! لو أحسنوا الظن لأتقنوا العمل » ؟ . وشجع الإسلام قيام الملكيات الفردية في أي صورة كانت هذه الملكيات :

« وابْتَغِ فيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا » « فَآتاهُمُ اللهُ ثواب الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ والله يحِبّ المحسِنينَ » . ولم يحاول الإسلام أن يساوي بين الناس في أملاكهم : « واللهُ فَضَّل بَعْضكُم على بَعض في الرِّزقِ فمَا الذين فُضِّلوا برادِّي رِزقِهم عَلى مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُم فَهُم فيه سَوَاءُ » « نَحنُ قَسَمْنَا بَيْنهُمْ مَعيشَتَهم في الحَيَاة الدُّنْيا ، وَرَفَعنَا بَعْضَهُم فوقَ بَعْض دَرَجاتٍ لِيتَّخِذ بعضهم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمة رَبّك خَيْر مِما يجْمَعُون »

ولكنه طالب بالتحرر من سيطرة المال وذلك بانفاقه في الزكاة ، وإخراجها من الأمور الواجبة ، فهي ركن من أركان الإسلام :

« وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ » ؛ وكذلك في الصدقات : « إن تُبدُوا الصَّدقَاتِ فَنِعِمَّا هِي وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوهَا الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُم » . وآيات الإنفاق كثيرة مثل : « يَأيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِما رَزَقْنَاكُم مِن قَبْل

أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ والكافِرُونَ هم الظالِمُونَ » . ويهدف الإسلام بذلك إلى قيام دولة اشتراكية فيها ملكيات فردية يعيش أفرادها جميعا وقد توافرت حاجاتهم ، على ألا تكون الملكيات كبيرة : « مَا أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِن أَهْلِ القُرَى فلِله ولِلرَّسُولِ وَلِذي القُرْبى واليَتامى والمسَاكِين وابْن السَّبِيل كَيْ لا يَكُونَ دُولَة بَينَ الأغْنِيَاء مِنكُم » .

وهكذا وضع الإسلام نظاماً اقتصادياً هو السبيل إلى قيام السلام في المجتمع إذ أن التفاوت الشديد بين الأفراد يسبب الحقد والبغض ، وما ثورات الجماعات إلا باحساسها أن فقيرها تخلفت عنه كل وسائل المعيشة ، وأنه يعيش في واد والمجتمع في واد آخــر .

والنظام السياسي للمجتمع الإسلامي اشتراكي كذلك : « وأَمرُهُم شُورَى بَينَهُم » ، وتعاوني : « وَتَعَاوَنُوا عَلى البرِّ والتَّقوَى ولا تَعاوَنوا على الإثمِ والعُدوَانِ » ، ويتميز أفراده علاوة على طاعتهم لله ورسوله بطاعة أولي الأمر الذين لا بد أن يكونوا منهم : « يأيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسول وَأُولِي الأمرِ مِنكُمْ » وهكذا يأمرنا الإسلام بعدم طاعة المستعمر ، وعدم الاستسلام له أو الرضاء به ، فكل من تولى علينا وليس منا فلا طاعة له بل جهاده؛ وكذلك طالبنا الإسلام بالجهاد في سبيل تحرير المسلمين من سيطرة غيرهم عليهم

أيّاً كان وطنهم بنص الآية : « ومَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلدَانِ الذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجنَا مِن هَذِهِ القَريَةِ الظَّالِمِ أَهلُها واجعَل لَنَا مِن لدُنكَ وليّاً واجعَل لَنَا مِن لدُنْكَ نَصِيراً » .

ولقد استجاب المسلمون لما دعاهم إليه الإسلام ، وكان رأسهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قرر التاريخ أن حياته هي المثل الأعلى للخلق الكريم والعقل الراجح والقلب الكبير ، وتخلق باقي المسلمين بما أنزل الله فتغير حالهم ، من جاهلية إلى حلم ، ومن قسوة إلى عطف ، ومن صلابة إلى رحمة ، ومن قلة في الأرض إلى كثرة ، ومن استضعاف بين الناس إلى عزة ، وبعد أن كانوا في انزواء سادوا العالم وفتحوا الأمصار لا بالقوة ولا بالسلاح ولكن بالأخلاق والأعمال.

هذا أبو بكر وقد تجمع الناس غداة ارتحال الرسول وأجمعوا الرأي على مبايعته بعد أن تقدم عمر وقال له : « أنت أقدمنا صحبة لرسول الله ، وأنت أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل دين الإسلام ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ويتولى الأمر عليك ؟ ابسط يدك أبايعك » . فبايعوه ، وظل بعد البيعة ثلاثة أيام يستقبل الوفود ويقول لهم : « لقد أقلتكم في بيعتي هذه . هل من كاره؟ هل من مبغض؟ » ، وخطب القوم وكان مما قاله : « وايم الله ما حرصت عليها — أي

الخلافة — ليلا أو نهاراً ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ، ولقد قلدت أمراً ما لي به طاقة ولا يد، ووددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني ، فأطيعوني ما أطعت الله فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم » .

وبعد عشرة أيام من خلافته امتنعت بعض قبائل العرب من أداء الزكاة ، ولما كانت الزكاة من دعائم الإسلام رأى أبو بكر أن الممتنع عن أدائها مرتد ، واستشار الصحابة في أمر قتالهم فخشوا ذلك وقالوا : لا طاقة لك بقتال العرب . فقال لهم أبو بكر : « أن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ،، والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى أبلي بنفسي عذراً أو أقتل قتلا . والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت الله وهو خير معين » .

ولننظر إلى وصاياه إلى عماله ورسله ، فيقول لخالد بن سعيد لما وجهه إلى الشام : « إني موصيك فاسمع وصيتي : إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في هذا الدين وفضيلة عظيمة في الإسلام ، والناس ناظرون إليك ومستمعون منك ، وقد خرجت في هذا الوجه وأنا أرجو أن يكون خروجك بنية صالحة ، فثبت العالم وعلم الجاهل ، وعاتب السفيه المترف ، وانصح لعامة المسلمين

واخصص الوالي على الجند بنصيحتك ومشورتك بما يحق للمسلمين ، واعمل لله كأنك تراه واعدد نفسك في الموتى » .
ويقول لعمرو بن العاص : « قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته ، واتق الله في سرك وعلانيتك ، واستحيه في خلواتك ، فانه يراك في عملك . وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق إيلياء حتى ينتهي إلى أرض فلسطين ، وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه ، وإياك أن تقول : جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم ، وإياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك » ، وكان مما قاله ليزيد بن أبي سفيان : « إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك فان أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك » .

ولعل أفضل ما وصف به سيدنا أبو بكر ما قاله سيدنا علي يوم أن قبض إذا وقف بباب بيته وقال : « يرحمك الله أبا بكر ! ! ، كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته ، وكنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ،

وأحوطهم على رسوله ، وأحدبهم على الاسلام ، وآمنهم على أصحابهم ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسوله هديا وسمتا ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده . فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، وصدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله في تنزيله صديقا ، والذي جاء بالصدق (محمد) وصدق به (أبو بكر) وآسيته حين تخلوا عنه وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفه نبي ، نهضت حين وهن أصحابه ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، لزمت منهاج رسول الله وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت إذ تتعتعوا . مضيت بنور إذ وقفوا ، كنت والله للدين يعسوباً ، أولا حين نفر عنه الناس وآخرا حين أقبلوا ، فكنت للمؤمنين أباً رحيما حين صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا وكنت كما قال رسول الله آمن عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في بدنك قويا في أمر دينك ، متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا في أعين المؤمنين ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لقائل فيك ملمز ، ولا لاحد فيك مطمع ، ولا لمخلوق عندك هواة ، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء ،

فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدا ، فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك » .

وولي الخلافة سيدنا عمر بن الخطاب الذي لم يعرف عنه إلقاء الخطب ولا ارتقاء المنابر ، ولكنه بعد الخلافة رسم سياسته في كلمة قصيرة تعتبر دستورا لمن أراد لبلاده مجد الدنيا ولنفسه ثواب الآخرة إذ قال : « أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه » . وها هوذا يكتب إلى أبي موسى الأشعري كتابا يوضح ما يجب على الحاكم أن يقوم به فيقول : « أما بعد ، فان للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الله فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يدا يدا ورجلا رجلا ، وَعُدْ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك وباشر امورهم بنفسك فإنما انت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن وإنما حتفها في السمن . واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقي الناس به والسلام » ..

هذا الخليفة عرف عنه في الجاهلية القسوة والأنفة والكبرياء، يضرب أخته وزوجها حتى تسيل دماؤهما ، وما كان أحد

في الجاهلية يحب لقاءه أو الاجتماع به ، فعندما أسلم تغير حاله إلى النقيض .. تدركه الصلاة وهو خليفة في كنيسة القيامة بالقدس ويقول لبطركها : أريد أن أصلي . فيقول له : صلّ يا أمير المؤمنين موضعك، فيأبي ،ثم يخرجه إلى كنيسة قسطنطين فيأبى ، ويصلي وحده على بابها ، ويقول للبطرك إنه امتنع من الصلاة في الكنيسة لئلا تخرج من يده ويأخذها المسلمون بعد أن يعرفوا أنه صلى بها ، ثم يكتب له أمراً ألا يصلي أحد مـن المسلمين على الدرجة إلا فرادى ، ولا تجمع فيها صلاة ، ولا يؤذن عليها . فهل تبلغ الرحمة والعدل والإحسان قدر ما بلغت عند عمر بهذا التصرف . ومرة يقدم الشام فتلقاه جنوده وعليه إزار في وسطه وقد خلع نعليه وهويخوض الماء وقد أمسك بزمام راحلته وخفاه تحت إبطه ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، الآن يلقاك الأمراء بطارقة الروم وأنت هكذا » . فقال : « إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نلتمس العز بغيره » .

وها هوذا عثمان بن عفان عندما ولي الخلافة يكتب إلى أمراء الأجناد بألا يغيروا ما وضعه عمر فيقول : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل على ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » . وكان من ضمن وصاياه إلى عماله : « فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء

والأمانة والوفاء . ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوا ما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم » . وإلى عمال الخراج كتب يقول : « أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم » .

ويعتبر كتاب علي بن أبي طالب لعماله من أروع ما كتبه حاكم يطلب إقامة العدل والشفقة والرحمة ، وقد وزع هذا الكتاب على جميع عماله فاعتبر أنه أشبه بالأوامر العامة وفيه يقول : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فاذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ثم تقول : عباد الله ، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها إلا باذنه فان أكثرها له ، فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا

تنفرن بهيمة ولا تفزعها ولا تسوأن صاحبها فيها . وأصدع المال صدعين ثم خيره فاذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، ثم أصدع الباقي صدعين ثم خيره فاذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت اولاً حتى تأخذ حق الله في ماله » . دخل مرة يقسم ما في بيت المال وكان يفعل ذلك كل أسبوع حتى لا يترك فيه شيئاً ، فوجد الذهب والفضة فقال قوله المعروف : « يا صفراء اصفري ، ويا بيضاء ابيضي ، وغري غيري ، لا حاجة لي فيك » .

وهل يصل القول إلى نهاية إذا ما كان القول عن المسلمين الأول ؟ وكيف كانوا ؟ وهل يذكر الزهد والعدل والإنصاف والرحمة والخلق ولا يذكر مثلا عمر بن عبد العزيز الذي كانت أول كلمة قالها بعد أن بويع هي : « أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير جهده ، ويدلنا على الخير على ما نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترضن فيما لا يعنيه » . وكان أول ما فعله أن نزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعي لبيت مال المسلمين . وكانت حكمته التي يتمثل بها ويقولها وما زالت تتردد حتى الآن : « إذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك » .

كانت هذه أخلاق القادة وأعمال الولاة .. ألا تسير على

هديها الأفراد والجماعات؟، فلم تكن مكارم الأخلاق وقفاً على الأمراء والحكام بل إن كل مسلم تخلق بهذا الخلق لعلمه أنه مسئول عما يعمل ، بل إن الإسلام مسئول عما فعل .

هذه هي الخطوط الواضحة التي رسمها الإسلام للمجتمع الإسلامي الذي شهد له كل منصف من خصوم الإسلام ، فيقول جيب في كتابه (مع الإسلام) : « ولكن الإسلام مازال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هـــذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهةً واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في أفريقيا والهند وأندونيسيا ، بل وتلك الجامعة الإسلامية الصغيرة في الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان تبين كلها أن الإسلام ما زال له القدرة التي تسيطر تماما على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات، فاذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » . ويقول ماسينيون : « إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليات المبادلات التي لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربويةوالضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف في الوقت نفسه إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري ، وبذا يحـــل الإسلام مرة أخرى مكانا وسطاً بين نظريات

الرأسماليين البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية » . ويقول كارلايل عن المسلمين «قوم يضربون في الصحراء، كانوا نكرة عدة قرون، فلما جاء النبي العربي اصبحوا قبلة الانظار في العلوم والمعارف ، وكثروا به وعزوا ، ولم يأت عليهم قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم . لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة ، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ؟ ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وشع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب قدم في الهند وأخرى في الأندلس ،وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان العظيم فهو مبعث الحياة ومبعث القوة » . وغير هؤلاء – ممن لا يشملهم حصر– كتبوا وألفوا في محاسن الإسلام وفضله على الحضارة .

لقد حل الإسلام مشكلات عديدة ما زال غير المسلمين يعانون منها ، وفي ذلك يقول مولاي محمد علي رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور ما ترجمته : « إن فكرة

إدماج البشرية في وطن واحد دون الاهتمام بالأجناس والألوان واللغات أو التقيد بالحدود الجغرافية هي الهدية التي أهدتها جامعة الإسلام إلى المدنية البشرية ، وهي الترياق الوحيد لسم الأحقاد الدولية والعداوة والبغضاء اللتين ساقتا المدنية والحضارة إلى هاوية الدمار . والمسيحية دين دولي كالإسلام من وجهة أنه الدين لكثير من الأمم والشعوب ، أما من وجهة المساواة بين الشعوب ونشر الإنسانية بينها فالإسلام هو الدين الدولي العام ، وإن فشل المسيحية في هذه الناحية ذريع ، فالمسيحيون البيض ما زالوا حتى اليوم يضمرون العداوة للمسيحيين السود مع انهم قد يعيشون في قطر واحد ، كما هو الحال في أمريكا موطن الديمقراطية وأعظم الشعوب حضارة ، إذ لا يستطيع الرجل الأبيض أن يعيش مع الرجل الأسود تحت سقف واحد . وما يزال مسيحيو الغرب يعتقدون أنهم أسمى من مسيحيي الشرق ، فهم لا يسمحون لهم إطلاقا بعبادة الله في كنائسهم الخاصة بهم . كما أن معتقدي المسيحية من طوائف المنبوذين الحقيرة في الهند ما زالوا حتى اليوم موضع الاحتقار من طوائف الهندوس العالية ، ومن هذا يبدو أن المسيحية أخفقت تماماً في تأليف وحدة إنسانية في حين أن الإسلام تمكن من إيجاد نظام عالمي عماده إخاء عام جمع بين الغربي والشرقي والأبيض والأسود والآري والسامي والهندي والزنجي وساوى بينهم تماماً ، فالزنجي الأسود أو المنبوذ يتساوى مع الرجل الأبيض أو ذي المكانة العالية في الحسب والنسب ، وينال نصيبه ، من الاحترام التام من

كل مسلم تربطه بهأخوة الإسلاموذلك بمجرد اعتقاده الإسلام مباشرة ، وهو لا يستطيع أن يعبد الله في المسجد نفسه فقط ، ولكنه يستطيع أن يقف كتفاً إلى كتف مع أعظم إخوانه مقاماً ومكانة اجتماعية ، كما يستطيع أن يتناول طعامه معه على مائدة واحدة . فانسجام الاسلام ومساواته غير معروفين في أية جماعة أو دين أو نظام في العالم كله ، ولا يمكن غير الإسلام أن يقدم الديمقراطية العالمية الحقة التي تنشر مثل هذه المساواة الفذةبين جميع البشر » .

ولم تقتصر رسالة الإسلام على الجانب الخلقي والاقتصادي والسياسي للفرد والمجتمع ، إنما دعت كذلك إلى العلم ، فطالبت المسلمين بالتعلم بل والارتحال في طلب العلم ما أمكن إلى ذلك السبيل ، ويضم القرآن الكريم ما يقرب من ٧٥٠ آية كونية علمية تقرر حقائق مختلف العلوم وتوجه النظر إلى دراساتها ، وقد استجاب المسلمون الأول إلى هذه الدعوة فظهر بين المسلمين علماء اعتبروا في الدرجة الأولى من العلم حتى الآن ، وقد كان يجمع العالِمُ منهم أصول أكثر من علم فيحتار المؤرخ تحت أي نوع من العلوم يضعه ، وقادوا أكبر حركة علمية في تاريخ البشر ، ومن أمثالهم جابر بن حيان وعز الدين الجلدكي وأبو القاسم المجريطي وأبو بكر الرازي والرئيس ابن سينا وابن رشد وابن الهيثم والفارسي وابن البيطار والقزويني وأبو الريحان البيروني والفارابي وغيرهم ممن لا يشملهم حصر . وقد سبق

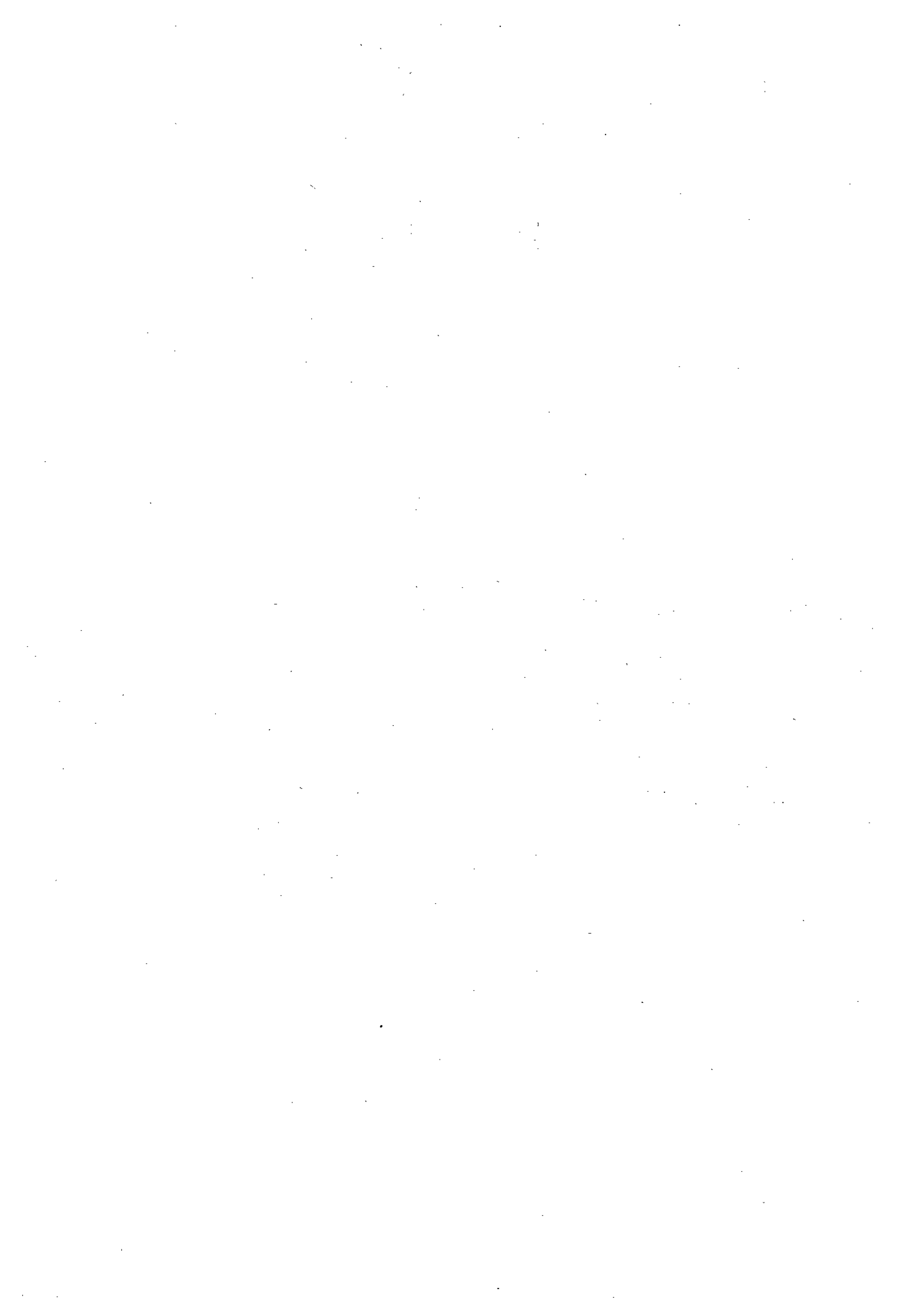
ايضاح الجانب العلمي للدعوة وعلماء المسلمين في كتب سابقة فليتفضل بالرجوع إليها من يشاء .

هذه هي رسالة الإسلام .. ألم تكن الحاجة تدعو إليها ؟ وأليس العالم في حاجة دائمة إليها ؛ لأنها تصلح لكل قوم في أي زمان ؟

فهل يمكن أن تكون هذه الرسالة دعوة إنسان ؟ .. أم لابد أنها رسالة السماء ؟ ،

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبياً .. ؟

* * *



إرهاصات ومعجزات

« واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصرِه مَن يَشَاءُ إنَّ في ذلِكَ لَعِبرةً لأولي الأبْصارِ »

(سورة آل عمران — ١٣)



كان عبدالله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً جميل الصورة كريم الخلق ، لم يعرف عنه ما كان شائعاً بين شباب العرب من مجون أو فسق أو فحش ، بل على العكس كان عفيفاً رزيناً حكيما ، وذلك بالرغم من أنه أصغر إخوته ، لذلك كان مطمع كل بيوتات العرب ، فأشرافهم يرغبون في مصاهرته ، وبناتهم يطمعن في الزواج منه. وقد جاء وقت كان زواج عبدالله موضع حديث قبائل العرب ، إلا أنه كانت أكثر بنات العرب طمعاً فيه ، وأصرحهن طلباً له ، أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، فلم تكن تلقاه إلا حدثته في أمر زواجه منها ، فلما علمت بخروجه مع أبيه للزواج قابلته عند الكعبة فقالت له : أين تذهب يا عبدالله ؟ قال : مع أبي . قالت : لك مثل الإبل التي نحرت عنك وتتزوجني . فقال : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه . فلما تزوج عبد الله بآمنة بنت وهب أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً ودخل بها لقي أخت ورقة في اليوم التالي فداعبها بقوله : وكم تعرضين عليّ اليوم ؟ فردت قائلة : لقد فارقك النور الذي كان معك . حق ما قالت ، لقد

كان نور سيدنا رسول الله إذ تكوّن في صلب عبدالله وأودعه آمنة ليكمل أيامه ويخرج للناس مبشرا ونذيراً، وداعياً بإذن ربه وسراجاً منيراً.

رأت أمه آمنة ليلة أن حملت به كأن نورا خرج منها فأضاء ما بين المشرق والمغرب حتى رأت على ضوئه قصور بصرى من أرض الشام. ويوم مولده تقول زوجة أبي العاص ممن حضرن الميلاد: «لقد شهدت ولادة آمنة بنت وهب ليلة ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما شيء أنظره في البيت إلا نور، ولقد رأيت النجوم تدنو ثم تدنو حتى لقد خشيت أن يقعن علي».

ولد سيدنا رسول الله ولكن ليس كما تولد الأطفال إذ لم تشعر أمه بما يصيب الأمهات أثناء الحمل من ألم أو تعب، وفي ذلك تقول آمنة عن نفسها: «ما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلمافصل مني خرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب». كما أنه نزل كما تقول أمه: «معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء». فهل كانت أولى لحظاته في الدنيا ضراعة ودعاء؟. أم كان يشكر رب السماء؟. أم هي محبته لله جعلته يتعلق بالسماء إلى آخر لحظة هبط فيها إلى عالم المادة؟. أم كان في توديع للملائكة التي أحاطت به تيسر له السبيل إلى البشرية ليدعوها إلى خير دعوة.. كما أنه ولد مختوناً، وهذه كرامة له كما يقول هو نفسه: «من كرامتي على الله أني ولدت مختوناً ولم ير سوأتي أحد».

ويتفق المؤرخون وكتاب السير أن الرسول عليه الصلاة

والسلام ولد عام الفيل ، وهو عام اهتم به العرب اهتماما يتضح في أنهم جعلوه تاريخاً لهم . ولقد كان ميلاد الرسول في هذا العام من ضمن الإرهاصات التي تؤكد نبوته ، فقد بنى أبرهة الحبشي كنيسة في اليمن وأسرف في تزيينها لعله يستطيع بذلك أن يصرف العرب إليها عن الكعبة . ولما علم أن أحد العرب جاء إليها وألقى فيها طيناً وأوساخاً بل أحدث فيها ، أقسم ليذهبن إلى الكعبة ويهدمها ، وخرج على رأس جيش جرار يمتطي فيلا ضخم الحجم ، وقد استولى على كل ما وجده في طريقه من قوافل تجارة أو مواشٍ لقريش وكان من بينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فما إن شارف أبرهة جبال مكة حتى أرسل يستدعي كبير القوم ، فذهب إليه عبد المطلب الذي قال له أبرهة : « إني لم آت لحربكم إنما جئت أهدم هذا البيت » . فقال عبد المطلب : « لقد أصبت مني مائتي بعير لي فردها علي » . فقال له أبرهة مستعجباً : « أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأجدادك وقد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ . فرد عليه عبد المطلب بقوله المشهور : « إني أنا رب الإبل ، وأما البيت فله رب يحميه » . وأخذ عبد المطلب إبله وذهب إلى قومه حيث دعاهم إلى الخروج من مكة والتحرز في الجبال بعيداً عن جيش أبرهة الذي رآه عبد المطلب ووجد أنه لا سبيل إطلاقا لملاقاته أو منافسته ، وأمسك عبد المطلب بحلقة باب الكعبة ينادي ربها بأن يحميها من كل شر ، وخرج القوم من مكة عند ما تهيأ أبرهة لدخولها . وفي الصباح

المبكر نهض أبرهة وقد أخذ كل زينة واستعد جيشه لدخول مكة ، وفي لحظة البداية امتطى فيله ووجهوه إلى مكة فبرك الفيل .. ضربوه ليقوم فأبى ، استعملوا المثوس في ضربه ومحاجن الحديد المحماة في النار في استنهاضه ، ولكنه يأبى كأن أمر الله قد نزل به ، فلما وجهوه راجعاً إلى اليمن قام يهرول ، ثم وجهوه إلى الشام فتوجه ، ثم أعادوه إلى مكة فبرك . ودامت محاولاتهم حتى انتصف النهار ، فقرر أبرهة أن يترك الفيل وأن يذهب غازياً بدونه . وبينما يستعد مع جيشه إذ بطير يملأ السماء ومع كل طائر ثلاثة أحجار : واحد في منقاره وحجران في رجليه ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك . وفزع المعتدون وولوا الأدبار وهم يتساقطون في الطريق قتلى بفعل الله وإرادته . أما أبرهة فقد أصيب في جسده ، وكان يعدو كالمجنون وهو يرى أصابعه تتساقط ولحم جسده يتناثر ، وما لبث أن مات . واختلطت أغاني النصر عند العرب بفرحة قريش بمولد اليتيم ابن عبدالله . وقد عد جميع الأهالي مولد محمد طالع سعد وفألا حسناً ، فقد نصرهم الله نصراً عزيزاً وحفظ لهم البيت العتيق مثابة وأمناً ، وعندما أنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على رسوله كان من ضمن ما ذكر من نعمه على قريش وفضله سبحانه عليهم رده الغاصب ، كما جاء في القرآن الكريم ، إذ خصص لها سورة كاملة باسم سورة الفيل ونصها :

« أَلَم تَرَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيلِ . أَلَم يجعل كيْدهُم في تضليلٍ ، وأَرسَلَ عليهم طَيراً أَبابيلَ . ترْميهم بحِجارةٍ من سجيلٍ فجعلهُم كعَصفٍ مأكولٍ » .

ويقول بعض البحاث إن ما أصاب أبرهة وجيشه هو وباء الجدري الذي نقله إليهم جملة من حشرات طائرة جاءت من بلاد موبوءة . وغيرهم يقول إنما الوباء هو الطاعون لسرعة فتكه بهم . ويرجح البعض أنه الجذام الطاحن ، إذ كان يطيح بأعضاء الإنسان إطاحة عاجلة . ومهما كان نوع المرض فقد تمت المعجزة وانهزم أبرهة وجيشه بجنود لم يرها أحد ، وسبحان من إذا شاء قال كن فيكون . وهكذا عندما أشرق نور الرسول على الأرض هزم المعتدين ورد كيد الكائدين ، وأراد الله سبحانه أن يحتفل جميع العرب على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم بمولد الرسول فعمت الفرحة جميع أنحاء البلاد .

ولقد كان من عادات أشراف العرب أن يرسلوا أطفالهم منذ ولادتهم إلى المراضع للرضاعة ، وكان عليه الصلاة والسلام من نصيب حليمة بنت ذؤيب زوجة الحارث بن عبد العزى التي أخذته بعد أن فشلت في أن تجد غيره ، فهو يتيم الأب فمن يسخو عليها في العطاء ؟ وكانت حليمة في شدة وعسر ، فقد قدمت على مطية هزيلة ، وتسوق ناقة لا تكاد تحلب ، ومعها رضيع ظهر عليه آثار فقر مرضعته وجوعها ، ثم ها هي ذي حليمة تأخذ اليتيم محمداً فيقع حبه في قلبها وتتعلق به أكثر من وليدها ، وما إن ضمته إلى صدرها حتى شعرت كأن اللبن قد ملأ جسمها ، فترضع طفلها ثم النبي ، وبينما هي في دهشة من أمرها ترى زوجها وقد أقبل عليها هاشاً مبشراً أن الناقة تدلى ضرعها من كثرة اللبن وحلبت كما لم تحلب من قبل . ويسير الركب عائداً إلى

البادية ، فيلحق بباقي المرضعات بعد أن كان دائماً متخلفاً عنهن ، بل وتسبقهن حليمة ، وهنا تتعجب الجموع كيف أن مطية حليمة الهزيلة الضعيفة التي كانت تسير وكأنها تقتلع أرجلها تسرع السير الآن وتضرب في الأرض بقوة ؟ دققوا النظر في المطية : يا ترى أهي وقد تغير حالها ؟ أم استبدلت بها حليمة غيرها ؟ وفي البادية كانت تخرج غنم حليمة لترعى ، فتعود مكتنزة سمينة لا كغيرها ، وقد غير القوم رعاتهم لعلهم يجدون أغنامهم كما وجدوا غنم حليمة ، ولكن بدون جدوى . لقد أدهشهم الأمر فكل الغنم أصبحت ترعى في مكان واحد فلا يظهر أثر الرعي سريعاً إلا على غنم حليمة . إنها النسمة المباركة كما قال الحارث زوج حليمة : « إن هذا اليتيم نسمة مباركة ، لقد وجدنا فيه بركة أي بركة ، سمنت غنمنا ، وزاد لبنها وبارك الله لنا في كل ما عندنا » . وبعد عامين انتهى الرضاع وعادت حليمة باليتيم إلى أمه ، وكلما اقتربت من داره شعرت كأن قلبها سيفارقها مع محمد ، فكيف السبيل إلى بقائه معها ؟ لقد فرحت أمه آمنة إذ وجدته جميلا تلوح عليه علامات الصحة والنشاط ، ويبدو كأنه ابن أربع سنين لا ابن عامين ، وظلت حليمة تحدث آمنة حديثاً طويلا وتلح فيما تطلبه ، لم تحدثها عن تعبها في رضاعته ، ولا عن مجهودها في خدمته ، وكانت كل مرضعة لا تتحدث إلى أم رضيعها إلا في ذلك لتسخو في العطاء ، فقد كان يوم تسليم الرضيع إلى أمه هوما تنتظره المرضعة لتنال أجرها . ولكن حليمة تحدثها عن يمنه وبركته ويسر حالها بوجوده ،

وتطلب بدلا من أجرها أن تأخذه معها إلى البادية فترة أخرى تشرف على خدمته ، وتطمئن على صحته ، فجو البادية أفضل وخاصة انها تخشى عليه من وباء كان قد انتشر في مكة . ولم تجد آمنة بعد أن سمعت ذلك أي مجال للمفاضلة ، فأخذته حليمة وما أسعدها به وهي تضمه إلى صدرها ، وقد عادت به إلى البادية مرة أخرى .

ويخرج محمد ليلعب مع أقرانه ، ولكن حليمة تخاف عليه فترسل معه دائماً أخته في الرضاع الشيماء لترعاه وتحافظ عليه ، وفي يوم اشتد حره ولفح جوه ، وقست شمسه ، خرجت حليمة تطلب محمداً وقد خافت عليه من الشمس لاسيما وقد انتصف النهار ، فإذا بالشيماء في طريقها إلى البيت ، وتتحسس حليمة محمداً فلا تجد للشمس ولا للقيظ من أثر عليه ، وتعرف الشيماء أن أمها خشيت عليه من الحر ، فتقول لها : « لا تجزعي يا أمي ، فوالله ما وجد أخي حراً ، لقد وجدت غمامة تظله حيثما ذهب ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى أتينا » .

وعاش عليه الصلاة والسلام والبركة في ركابه واليمن طالعه حتى أرسله الله رحمة للعالمين ، وهنا ظهرت معجزات كثيرة على يده ، هذه المعجزات كانت لنصرته في وقت عسرة ، أو لإخراجه من محنة ، أو لدفع أذى عنه أو عن المسلمين . أما دعوته فانها لم تقم على الخوارق والمعجزات ، بل قامت بالمنطق والعقل والعلم ، ومعجزته التي أرسل بها إلى العالمين هي : كلام الله الخبير العليم ، القرآن الكريم ، الذي سيظل أبد

الآبدين يؤكد نبوة سيد الخلق أجمعين ، ومعجزاته القولية والفعلية أكثر من معجزات جميع الأنبياء من آدم إلى سيدنا المسيح مجتمعة .

فمن معجزاته القولية : إخباره عن وقائع مضت ، وعن خوادث تقع ، وفي هذه يعترف عليه الصلاة والسلام أنه بذلك لا يعرف الغيب :

« قُل لا أَقولُ لكمْ عِندِي خزائِنُ اللهِ ولا أَعلم الغيبَ ولا أَقولُ لكُمْ إنِّي مَلَكٌ » . وإنما ذلك وحي من الله سبحانه وتعالى : « تِلكَ مِن أَنْباءِ الغيب نوحِيها إليْكَ ما كُنتَ تعلمُها أَنتَ وَلا قومُكَ مِن قبْلِ هَذَا » .

ومن هذه المعجزات قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم ، وإن الأحزاب سائرون عليكم تسعاً أو عشراً » . فجاءت الأحزاب وكانوا عشرة آلاف ، وحاصروا المسلمين وحاربوهم حرباً شديدة أصاب المسلمين فيها الضيق والعسر ، ولكنهم ازدادوا إيماناً ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« ولما رَأَى المؤْمِنُونَ الأحْزَابَ قَالُوا هَذا مَا وَعدنَا اللهُ وَرسُولهُ وَصدَقَ اللهُ ورَسُولهُ ومَا زَادهُم إلا إيمَانا وتَسليماً » .

وبإجماع الرأي فان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر الصحابة بفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق ، وأن

الأمن يستتب حتى ترحل المرأة من الحيرة إلى مكة لاتخاف إلا الله، وأن خيبر تفتح على يد علي رضي الله عنه ، وأنهم يقتسمون كنوز ملك فارس وملك الروم ، وأن الله زوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها ، وانتشر الإسلام في الشرق والغرب قبل انتشاره في الشمال والجنوب ، وأن فاطمة ابنته أول أهله لحوقا به فماتت رضي الله عنها بعد ستة أشهر من وفاته ، وكانت أول من مات من أهل بيته ، وأن الحسين بن علي رضي الله عنهما يقتل بالطف وهي ناحية بالكوفة تسمى الآن بكربلاء ، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام يقتل في شهر رمضان بضربة سيف على رأسه في سجوده وهو صائم ، فقتل علي في رمضان بأن ضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه بالسيف في أول سجدة من صلاة الصبح ليلة تسعة عشر من شهر رمضان ، وتوفي عنها ليلة إحدى وعشرين منه ، وأن الحسن بن علي سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين ، وأنه سيموت مسموما ، وأن أبا ذر يعيش وحيداً ويموت وحيداً . وكذلك ما قاله لأبي بكر عندما جاء يعلن إسلامه، فعن ابن مسعود أن أبا بكر قال : « نزلت على شيخ في اليمن قد قرأ الكتب وعلم من علم الناس ، فقال : أحسبك حرمياً . قلت : نعم . قال : وأحسبك قرشياً . قلت : نعم ، قال : وأحسبك تيمياً . قلت : نعم. قال: بقيت لي فيك واحدة ، تكشف لي عن بطنك . قلت : لا أفعل أو تخبرني ذاك . قال : أجد في العلم الصحيح أن نبياً يبعث في الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل : أما الفتى فخواض غمرات ، ودفاع

معضلات ؛ وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه الأيسر علامة ، وما عليك أن تريني ما سألتك . فكشفت له عن بطني فرأى شامة سوداء فوق سرتي ، فقال: أنت هو ورب الكعبة ، وأوصاني . قال أبو بكر : فقضيت باليمن أربي ثم أتيت الشيخ لأودعه ، فقال : أحاملٌ مني أبياتاً إلى ذلك النبي ؟ قلت : أفعل . وحملت الأبيات وقدمت مكة فاذا بصناديد قريش مقبلين علي يقولون : أوما علمت الخطب ؟ قلت : وما هو ؟ قالوا : يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، والكفاية فيك . فصرفتهم على أحسن وجه ، وقدمت على رسول الله فقلت : يا محمد ، قدحت منازل أهلك وتركت دين آبائك، قال : إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم. قلت : وما دليلك ؟ قال : الشيخ الذي لقيته باليمن ، قلت : وكم لقيت من شيخ باليمن . قال : الذي أفادك بالأبيات : قلت . من أخبرك يا حبيبي ؟ قال : الملك المعظم الذي كان يأتي الأنبياء من قبلي . قلت : امدد يدك فاني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » . ومعجزاته القولية لا تقف عند حد .. أليس رسول الله ونبيه ؟ فلا حرج على فضل الله .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام الأخرى ما حدث عندما أمره الله بالهجرة من مكة ، فخرج من داره ووجد الأعداء قد حاصروا داره ليطلبوه ، فقد اتفقوا على قتله . فيأخذ حفنة من تراب ويلقيها في وجوههم وهو يتلو آية الله :

« وَجَعَلْنا مِن بَيْنِ أَيدِيهِم سَدّاً وَمِن خلفهم سَدّاً

فأغشَيناهم فَهُم لا يُبْصِرُونَ » .

ومر أمامهم وهم لا يبصرونه ، وانطلقت قريش تجد في البحث عن محمد وقد جعلت مائة ناقة لمن يدل على مكانه ، واتجه سيدنا رسول الله ، ومعه أبو بكر ، إلى غار بجبل ثور أسفل مكة فدخلاه حيث قضيا ثلاثة أيام كانا يسمعان دبيب أقدام الأعداء وهم يبحثون عنهما ، فقد اقتفوا أثرهما ، وقال العرافون وقصاصو الأثر : إلى هنا انتهى المسير بالمطلوبين . إنه ليس بينهم وبينهما سوى خطوات قصار ، ويقول أبو بكر : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فيرد الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تحزن إن الله معنا . ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .» . وما منع الأعداء عن الغار إلا أن أمامه شجرة قد تدلت أغصانها ونمت أفراعها بحيث جعلت لا سبيل إلى دخوله وهي في هذه الحالة ، كما وجدوا بفم الغار حمامتين وحشيتين قد وضعتا بيضاً ورقدتا عليه ، وعلى بابه نسجت العنكبوت بيتها .. فكيف تنمو أغصان الشجرة وتتهدل في لحظات ؟ وكيف تبيض الحمامتان وترقدان على البيض في دقائق ؟ بل كيف ومتى تنسج العنكبوت بيتها في الحال ؟ ويكون بيت العنكبوت هو الحائل بين العدو والرسول ..

« وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لبَيْتُ العَنكبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ » .

مر الرسول في هجرته مع أبي بكر بدار أم معبد الخزاعية وسألها أن يشتري ما يأكلانه ، ولكنها أبدت أسفها ، فليس

عندها ما يؤكل . ويقول ابن سعد عن أبي معبد الخزاعي : «فنظر رسول الله إلى شاة في الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم . فقال : هل بها من لبن؟ قالت : هي أجهد من ذلك . قال : أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً . فدعا صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها في شاتها . فدرت الشاة واجترت ، فدعا باناء فحلب فيه حتى امتلأ فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم ، وقال : ساقي القوم آخرهم . ثم حلب فيه ثانيا عوداً على بدء » .

ومن معجزاته التي أيد الله بها نصره ما حدث يوم غزوة بدر إذ أخذ قبضة من تراب ورمى بها وجوه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه ؛ فأصاب الأعداء ما جعلهم يهزمون شر هزيمة ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ الله رَمَى » .

أي أن ما تم إنما هو معجزة أجراها الله على يد رسوله . وما حدث يوم الخندق إذ رأى الرسول أن أصحابه قد نالهم الألم لطول الحصار ، فصعد عليه الصلاة والسلام إلى الجبل الذي عليه مسجد الفتح اليوم ، فدعا الله وناجاه ، وكان فيما دعاه قوله : « اللهم اصرف عنا شر هؤلاء القوم بقوتك وحولك وقدرتك ». فأرسل الله ريحا شديدة ليلا على الأحزاب فاقتلعت خيامهم وانقلبت قدورهم واندلعت نيرانهم في متاعهم ففروا من شدة ما

أصابهم حتى تركوا بعض أدواتهم وعدتهم ، وفي ذلك يقول الله سبحانه :

« يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لم تَرَوْها » .

ومن معجزاته التي شاهدها ألوف المسلمين ممن حضروها البركة التي أودعها الله في الطعام يوم احتاج المسلمون إلى الطعام ، فيأكلون وهم مئات من طعام لا يكاد يكفي فرداً ، ونبع الماء بقدرة الله فيرتوون جميعاً من قطرات هي بقية من الماء عند واحد منهم . يقول أبو هريرة رضي الله عنه : « أصاب الناس مخمصة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من شيء ؟ فقلت : نعم ، شيء من التمر في المزود . قال : فأتني به . فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ودعا بالبركة ثم قال : ادع عشرة ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم عشرة كذلك ، حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا ، وقال : خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض منه ولا تسكبه ، فقبضت على أكثر ما جئت به. ذهب عليه الصلاة والسلام للغذاء مع نفر من المسلمين إبان حفر الخندق وكان الداعي قد ذبح جدياً ، فمد الرسول يده وقال : « بسم الله ، اللهم بارك فيها ، اطعموا » . فأكلوا حتى شبعوا وكانوا عشرة ، ونادى على غيرهم حتى شبعوا ، ولم يأكلوا إلا ما يقرب من ثلث الأكل . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن فاطمة طبخت قدراً لغذائهما ووجهت علياً إلى النبي عليه

الصلاة والسلام ليتغذى معهما ، فأمرها فغرفت لجميع نسائه صحفة صحفة ثم له عليه الصلاة والسلام ثم لعلي ثم لها ثم رفعت القدر وإنها لتفيض . قالت : فأكانا منها ما شاء الله .. وعن جابر رضي الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية والنبي عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوة يتوضأ منها ، فأقبل الناس عليه فقال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب ، فوضع يده في الركوة فشربنا جميعاً وتوضأنا . قيل : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمس عشرة مائة » . وعن أنس قال : « أتي النبي صلى الله عليه وسلم باناء وهو بالزوراء (سوق بالمدينة) مع أصحابه ، فوضع يده في الإناء فتوضأ القوم وشربوا وكانوا في عطش شديد ولا ماء عندهم . قيل : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة » . ومثل هذه المعجزات لا يمكن حصرها فانه في كل غزوة وقتال كان الله سبحانه وتعالى يبارك فيما عند رسوله من غذاء وماء فيكفي المسلمين ، وكثيراً ما أمطرت السماء على المسلمين إذا اشتد عليهم الجدب ولا تتعداهم إلى أعدائهم .

ومن معجزاته إجابة دعوته . فعن أنس رضي الله عنه قال : « أصاب أهل المدينة قحط ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الكراع فادع الله يسقينا ، فمد يديه ودعا الله . قال أنس : وإن السماء كمثل الزجاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحاباً ، اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها ، فخرجنا نخوض الماء حتى

أتينا منازلنا ، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى ، فقام عين ذلك الرجل فقال : يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله يحبسه ، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : حوالينا ولا علينا يا رب . فنظرت إلى السحاب قد تصدع حول المدينة كأنه إكليل».
ذهبت أم أنس بن مالك خادم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالت له : « يا رسول الله ، إن أنساً غلام كيس فادع له » . فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك فيه » . قال ابن عساكر : « مات لأنس في طاعون الجارف ثمانون » . وقال أنس : « دفنت من صلبي مائة وخمسة وعشرين ذكوراً إلا بنتين ، وإن أرضي لتثمر في العام مرتين » .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه بعد الصلح الذي تم بين المسلمين وبين اليهود خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم – وهي يهودية – شاة أعدتها بنفسها ، فلما جلس الرسول وأصحابه ليأكلوا تناول عليه الصلاة والسلام الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها فلفظها ، وقال : « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » . أما بشر بن البراء بن معرور فأساغها وأكل منها ، ثم دعا الرسول زينب التي اعترفت بأنها وضعت سما في الشاة وقالت : « لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان كاذباً مات واسترحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر به ويحفظه الله ونتبعه » . ومات بشر وأسلمت زينب .

ومن ضمن معجزاته عليه الصلاة والسلام الإسراء والمعراج .

فقد كان في بيت ابنة عمه هند ابنة أبي طالب ، وكنيتها أم هانيء ، وبات ليلتها وأخبرهم في الصباح بمعجزة الإسراء والمعراج . وتقول أم هانيء : «إن رسول الله نــام عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : « يا أم هانيء ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . فقلت له : يا نبي الله لا تحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك . قال : والله لأحدثنهموه» . وفي ذلك يقول القرآن الكريم » :

« سُبحان الّذي أسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً من المسْجِدِ الحرامِ إلى المسجِدِ الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيَهُ من آياتنا إنه هُوَ السميعُ البصيرُ » .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث قومه عمـــا رأى ، وكيف أن الله أراد فأرسل له جبريل بالبراق ، وهي الدابة التي حملته ألى بيت المقدس ، ثم عرج إلى السماوات ورأى ما رأى من آيات ربه الكبرى ، وحيث فرضت على أمتــه الصلاة ، لقد وجد الكفار والمشركون في هذه المعجزة مـــادة لتكذيبه ، بل إن من المسلمين من كذب بها فارتد ، وما ذلك إلا لعدم استطاعة عقولهم تعليل كيف حدث الإسراء والمعراج .. فهل استوعبت عقولهم معجزات باقي الرسل والأنبياء ؟ فهذا سيدنا إبراهيم يلقى في النار فلا يصيبه منها شيء ، وها هو ذا

يأخذ أربعة من الطير فيذبحها ويخلط أحشاءها ويوزع أجزاءها على جبال مختلفة ثم يناديها فتتجمع الأجزاء وتعود الطير سيرتها الأولى . وسيدنا موسى يلقي عصاه فتهتز كأنها جان وتبتلع حبال السحرة وسيدنا عيسى يبرىء الأكمه والأبرص ، بل يصنع من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيصير طيراً . فهل أحاط العقل البشري بأسرار هذه المعجزات ووقف على أسبابها ؟ وكيف تكون معجزة إذا لم تكن فوق ادراك البشر ؟ . أليست المعجزة قصراً للعقل وأمراً فوق ما عهد الناس إختص به الله رسله ؟ وفي اللغة المعجزة : « هي ما أعجز به الخصم عند التحدي وهي أمر خارق للعادة يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله » . ومع ذلك فان التقدم العلمي الذي يتميز به العصر الحديث ليضيف أدلة علمية تؤكد إمكان الإسراء والمعراج ، فان آخر ما وصل إليه العلم في أبحاثه عن النوم أنه طرح روحي مؤقت فيه تنطلق الروح إلى عالمها ولكنها تظل مرتبطة بالجسد بحبل أثيري به تظل الروح مقيدة إلى مناطق معينة لا تتجاوزها ، بينما الموت هو طرح روحي دائم ، إذ ينقطع هذا الحبل فلا ترتبط الروح بالجسد إنما تنطلق إلى حياتها الأخرى . وهذا هو تفسير للآية الشريفة التي تقول :

« اللهُ يتوَفى الأنفُس حينَ موْتِها والتي لمْ تمتْ في منامِها فَيُمْسِكُ التِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرسِلُ الأخْرَى إلى أجَلٍ مُسَمّى »

ويقول العالمان الشهيران كارنجتون وملدون في كتابهما (طرح الجسم الروحي) : « قدم البحاث فيما مضى عدة نظريات

لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها إذ لم يكن بينها واحدة ملائمة تفي بالغرض. فمثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية الأولى تعلل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال اليقظة وتقول : إن النوم يبيد هذه المواد . والأخرى التي تقول : إن سبب النوم حدوث حالات غريبة في دورة المخ الدموية ، وغيرها التي تقول : إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة .. كل هذه النظريات عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق التي تقرر وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم وترتاد مؤقتاً عالم الروح » .

ويقول النابلسي في كتابه (تعطير الأنام في تعبير المنام) : الرؤيا يراها الإنسان بالروح ويفهمها بالعقل ، فاذا نام الإنسان امتد روحه مثل السراج أو الشمس ، وذهابه ورجوعه إلى النفس مثل الشمس إذا غطاها السحاب وانكشف عنها . فإذا عــادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما رأى وخيل له . وقال بعضهم : إن الحس الروحاني أشرف من الحس الجسماني لأن الروحاني دال على ما هو كائن والجسماني دال على ما هو موجود » . فالإنسان إذن تنطلق روحه كل ليلة فترى أشخاصاً بعينهم أو أمكنة بذاتها ، وقد ترى رؤيا تنبؤية تتحقق بعد فترة طالت أو قصرت ، وخير مثل في هذا الصدد رؤيا سيدنا يوسف إذ يقول القرآن الكريم :

« إذْ قالَ يُوسُفُ لأبيه يا أَبَتِ إنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كوْكباً والشّمس والقمَرَ رَأَيْتُهم لي سَاجدين » . وقد تحققت

هذه الرُّؤْيا مؤولة بعد سنين : « فلمّا دَخلُوا على يُوسفَ آوى إليه أبَويْه وقال ادْخلوا مصرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنِين . ورفَعَ أبَويْه عَلى العرْشِ وخرّوا له سُجدا وقال يا أبَتِ هذاتأويلُ رُؤْيايَ من قبلُ قدْ جَعلها ربِّي حَقّاً » ، وكذلك رؤيا فتيان السجن : « ودخلَ مَعهُ السِّجنَ فتيَان قالَ أحدهُما إنِّي أرَاني أعصرُ خمراً وقالَ الاخر إنِّي أرَانِي أحْمِلُ فَوقَ رَأسِي خُبْزاً تأكلُ الطّيرُ مِنْه نَبِّئْنَا بتَأويلِه إنّا نَراكَ مِنَ المحْسنِينَ » . فقال يوسف : « يَا صَاحِبَي السِّجن أمّا أحَدكُما فَيسقي رَبّهُ خمراً وَأمّا الآخرُ فَيُصْلبُ فَتأكلُ الطّيرُ مِن رَأسهِ قُضِيَ الأمْرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيَان».

رؤْيا الملكِ :

« وَقَالَ الْملك إنِّي أرَى سَبْعَ بَقرات سمَان يأكلهنّ سَبعٌ عجافٌ وسَبْعَ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأيُّها المَلاءُ أفْتُوني في رُؤْيَايَ إن كُنتمْ لِلرُّؤْيا تَعْبرُونَ » وفسرها يوسف : « قالَ تزْرَعُونَ سَبعَ سِنِينَ دَأباً فمَا حَصَدتُم فَذَرُوهُ في سُنْبله إلا قلِيلاً مِمّا تأكُلونَ . ثمّ يَأتي من بَعد ذلكَ سَبعٌ شدادٌ يَأكلنَ ما قدّمْتُم لهُنّ إلا قَلِيلاً ممّا تُحصنونَ . ثمّ يَأتي مِنْ بعدِ ذلِكَ عام فِيهِ يُغاثُ النّاسُ وفِيهِ يَعصِرونِ » .

ولقد ظل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الوحي

يرى الرؤيا في منامه فاذا أصبح تحققت كما شاهد وكما حدث بها، وفي ذلك تقول عائشة رضي الله عنها : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » . بل أثبت العلم إمكان الرؤيا في اليقظة إذا ما زهدت النفس وقامت بالرياضة الروحية ، فيقول الطبيب العالمي الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) وتحت عنوان (النشاط الصوفي) ما نصه : « يتخذ النشاط الديني صوراً مختلفة . إنه في حالته البدائية الأولى تعطش ونزوع مبهم نحو سلطان يعلو فوق الصور المادية والعقلية في عالمنا ، أو هو نوع من الصلاة غير المنطوقة أو البحث عن جمال أكمل من جمال الفن وجمال العلم ، إنه قريب من النشاط الجمالي يقود الشعور بالجمال إلى النشاط الصوفي . والجمال الذي ينشده الصوفي أبعد عن التعريف والتحديد . إنه بدون صورة على الإطلاق ولا يمكن التعبير عنه بأية لغة ، يختفي في أشياء العالم المنظور ، ويبدو لقلة من الناس ، وهو يطلب تسامي الروح نحو كائن هو الذي ينبثق منه كل شيء . وينطوي التصوف في أسمى حالاته على طرائق غاية في النضج ورياضة روحية صارمة ، وهو يتطلب أولا وقبل كل شيء ممارسة الزهد — ورياضة النفس على الزهد شاقة ، لهذا كانت قلة من الناس هي التي تجد في نفسها الشجاعة للسير في طريق الصوفية، هذا الطريق الوعر الذي يقتضي المرتحل

فيه التجرد من ذاته ومن أمور هذه الدنيا ، وإذا هو بعد ذلك في ظلمة الليل البهيم . إنه يستشعر آلام التطهير بينما يلتمس نعمة الله . إنه ينفصل من نفسه شيئاً فشيئاً ، وتصبح صلاته تأملاً ، ويدخل في الحياة النورانية . إنه يعجز عن وصف ما يرى . إن روحه تنطلق بعيداً وراء المكان والزمان وتتصل بشيء يجل عن الوصف . لقد شارف الحياة الاتحادية . إنه يتأمل الله » . هذا بالنسبة للمتصوف . . فكيف إذا كان سيد الخلق وخاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد بن عبدالله الذي صفت نفسه وتجرد من الدنيا قلبه وزهد جسده وتعلقت بالله روحه ؟.. فهل نعجب إذا انطلقت روحه بعد ذلك وشاء الله أن ترى من آيات ربها مـا رأت ؟ .. وهكذا يثبت العلم إمكان الإسراء والمعراج بروح سيدنا محمد . والأبحاث العلمية الحاضرة قد وصلت إلى حقائق تقرر إمكان أن يكون الإسراء والمعراج بالجسد أيضاً ، فقد قال العلم أخيراً بامكان تحويل المادة إلى طاقة ثم إعادة الطاقة إلى المادية مرة أخرى وعندها يكاد ينعدم الزمن فيمكن عن طريق ذلك نقل المادة من مكان إلى آخر بلا وقت نحس به . وقد جاء القرآن الكريم بهذه الحقيقة في سورة النمل إذ قال عفريت من الجن إنه يمكن أن ينقل عرش بلقيس في وقت قصير ، ولكن الذي عنده علم من الكتاب نقل العرش في أقل من لمح البصر :

« قال يَـأيُّها المَلأُ أَيـُّكُـم يـَأتِيني بعَرشِـها قبَلَ أن يـَأتوني مُـسْلمِين قال عفريتٌ مِن الجنِّ أنا آتِيكَ بهِ قبلَ أن تَـقُومَ من مقامِـكَ وإني عليهِ لقوِيٌّ أمين. قالَ الذِي عِندَه عِلمٌ من

الكتاب أنا آتيكَ بهِ قبلَ أن يَرْتدَّ إليك طَرفكَ فلَما رَآهُ مُستقِراً عِندَهُ قالَ هـَذا مِن فَضل رَبي » .

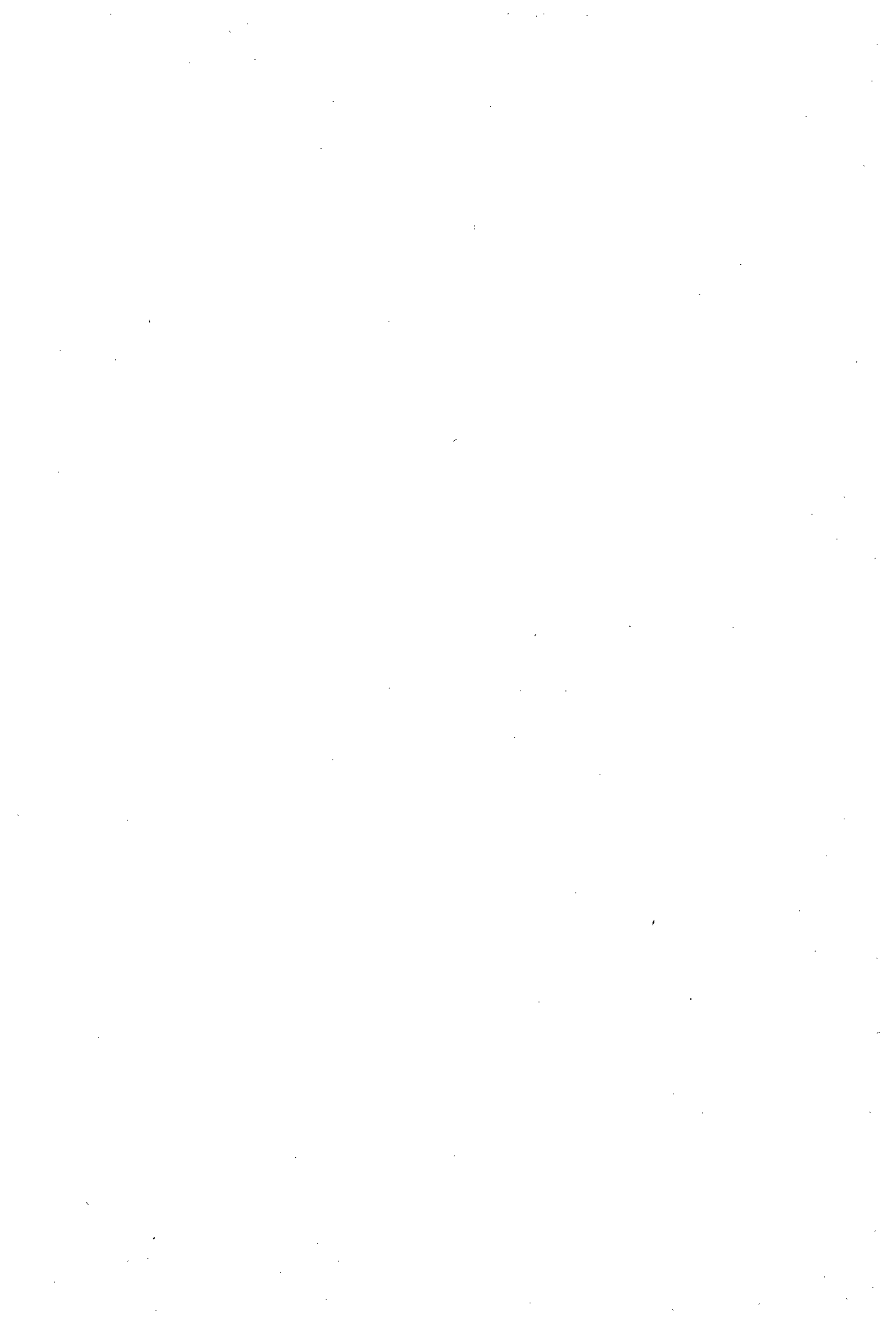
ومن ذلك عندما ذهب القوم إلى سيدنا رسول الله بعدأن أعلن الإسراء والمعراج وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس الذي لم يره الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته إلا في الإسراء ، فيرى جبريل وقد أتى بالبيت ووضعه أمامه ، فيظل الرسول يصفه لقومه وصفاً دقيقاً تفصيلياً ، ولم يترك صغيرة دون أن يذكرها . إذن فالعلم يثبت إمكان الإسراء والمعراج بجسدالرسول الشريف أيضاً ولو أن هذا يستحيل على الإنسان العادي حيث لا يمكن أن يتم إلا بارادة الله ويكون ذلك معجزة لتأييد من تتم له من الله سبحانه وتعالى . والدليل على أن الإسراء والمعراج تم بالجسد ما رواه عليه الصلاة والسلام لقومه من أنه مر بعير لقريش في طريقها ، وقد ضل بعير لهم فدلهم عليه الصلاة والسلام عليه . وشرب ماء من آنية لهم وأهرق ما بقي في الإناء، وقال لهم : إن آية ماء يقول أن العير تصل في اليوم التالي يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء . فلما وصلت القافلة سألها القوم ، فكان كل ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام صدقاً وحقاً . وبديهي أنه لا يستطيع أن يتكلم مع القافلة ويخبرها بالبعير الضال إلا إذا كان بجسمه، كما يدل على ذلك شربه من الإناء .

وسواء أكان الإسراء والمعراج بالروح فقط أو بالروح والجسد أو أن الإسراء كان بالروح والمعراج بالجسد ، فان ما تم يؤكد أنها معجزة تدل على نبوة سيدنا محمد وصدق رسالته .

هذه هي بعض إرهاصات النبوة وصورة من المعجزات العديدة التي أجراها الله على يده .

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبياً ؟ .

* * *



بُشَرَيات من الكتب المقدسة

« الذينَ يَتبِعُونَ الرسُولَ النّبيَّ الأمِّيَّ الذِي يَجِدُونَه مكتُوباً عِندَهُم في التوْراةِ والإنْجِيلِ » .

(سورة الأعراف ــ ١٥٧)



إنه مما لا شك فيه أن الكتب المقدسة التي نزلت قبل القرآن الكريم قد بشرت بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجاءت بآيات صريحة عن رسالة الإسلام ، إذ أن سيدنا رسول الله عندما كان يدعو اليهود إلى الإسلام كان يطالبهم بالاحتكام إلى التوراة ، وذلك بنص الآية الشريفة :

« قُل فَأتُوا بالتّورَاة فاتلُوهَا إنْ كنْتمْ صَادِقِينَ »

ثم يقرر القرآن الكريم أن التوراة زيادة على أنها بشرت بنبوة سيدنا محمد قد ذكرت صفاته بنص الآية الشريفة :

« الذين يَتّبعُون الرّسول النّبي الأميّ الذي يَجدُونه مَكتُوبا عندهُمْ في التّورَاةِ والإنجيل يَأمرهُم بالمعروف وَيَنهاهُم عَن المنكرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطيباتِ وَيُحرّمُ عَليهم الخبائثَ وَيَضعُ عَنهُم إصْرهَمُ والأغلالَ التي كانَتْ عَلَيهِم»

هذه هي التوراة التي أنزلها الله على سيدنا موسى ألواحا فيها المواعظ والأحكام وتفصيل ما يحتاج إليه الإنسان . « قال : يَا مُوسى إني اصطفَيتُكَ عَلى النّاسِ برسالاتي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتيتُك وَكن مِن الشّاكِرينَ . وَكَتبنَا لهُ في

الألوَاح مِن كل شيء مَوعِظةً وتفصِيلا لكل شيء فَخُذْهَا بِقوّة وأمُرْ قومَكَ يَأخذُوا بأحْسَنِهَا » . فهل هذه التوراة هيَ المتداولة الآن ؟

يقرر التاريخ أن اليهود توالت عليهم هجمات أعدائهم منذ بداية عهدهم ، ففي سنة ٨٨٢ قبل الميلاد حوصرت مدينة السامرة وحرق كل ما فيها من الكتب الدينية وهدم الهيكل وأعدم التابوت الذي كانت فيه التوراة ، وتعدد عليهم الهجوم أكثر من مرة في كل قرن من الزمان . وكان الهدف من الاعتداء قتل اليهود لاسيما المتمسكون بدينهم وذبح أبنائهم وإعدام كل ما يتصل بمعتقداتهم من كتب أو رسائل أو معابد . وبديهي أنه عقب كل هجوم كان اليهود الفارون يعيدون كتابة التوراة ولم يكن مرجعهم عند التدوين إلا ما علق في صدورهم وما وعته ذاكرتهم ، الأمر الذي بسببه لا بد أن تكون قد سقطت بعض الآيات أو زادت عن طريق السهو ، هذا علاوة على ما تعمده البعض من ترك بعض الآيات إضافة أخرى لتغيير معنى أو تحديد اتجاه معين ، والله أعلم بما أضافوا وبما تركوا .

فهل يمكن أن يكون سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قد تلا على قومه كتاباً مقدساً أوحى به الله سبحانه وتعالى هداية لبني إسرائيل يطالبهم فيه بعبادة الله وحده ويدعوهم إلى الخلق الكريم والعمل الحسن ، ثم يذكر فيه أن الأنبياء قد قاموا بما يطالب قومه أن يمتنعوا عنه ؟ ؟ ففي نسخ التوراة المتداولة نجد بها أن سيدنا نوحا قد شرب خمراً وعربد ، وأن النبي داود

أحب امرأة قائد جيشه ، وأن النبي سليمان مات وثنياً يعبد الأصنام ، وأن النبي إبراهيم كذب إذ ادعى أن زوجته هي أخته ، وأن النبي لوطاً شرب خمراً وزنى بابنتيه ، وأن يهوذا زنى بكنته ... فكيف يستجيب الناس لدعوة بعدأن يعلموا أن الأنبياء المرسلين لم يستجيبوا لها ، بل عملوا على نقضيها ؟ ..

ولقد أنزل الله على سيدنا عيسى الإنجيل بنص الآية الشريفة :

« ثم قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنا ، وقَفَّينا بعيسى بنِ مريمَ وآتيْناهُ الإنجيلَ » .

وقد وقع اضطهاد كبير على المسيحيين من أعدائهم في عهودهم الأولى ، ومن المسيحيين الذي يخالفونهم في الرأي بعد ذلك . ولعل ما وقع عليهم من نيرون الطاغية لم يقع على غيرهم من قبل ، ففي عام ٦٨ م كان نيرون يلقي بالمسيحيين للوحوش الضارية تنهش أجسامهم ، بل وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح في بعض الاحتفالات التي كان يقيمها نيرون في حدائق قصره . ثم توالت الحرب عليهم بعد ذلك فأمر دقلديانوس بهدم كنائسهم وإعدام كتبهم المقدسة وجميع الآثار التي خلفها آباؤهم . وبعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين مراسيم التسامح عام ٣١١ م قويت المسيحية وعاد المسيحيون للاجتماعات ، فظهرت الفرق التي بشأنها عقدت عدة مجامع تزيد على إثني عشر مجمعاً لتقريب الآراء . أما مدى الخلاف وعدد المخالفين فيظهر مما كتبه ابن البطريق المسيحي في وصف مجمع نيقية عام ٣٢٥ إذ يقول : « بعث الملك قسطنطين

إلى جميع البلدان فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة وكانوا مختلفين في الآراء والأديان ، فمنهم من كان يقول : إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية ويسمون الديميتيين ، ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها ، وهي مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، وهي مقالة إليان وشيعته . ومنهم من يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وهي مقالة بولس الشمشاطي ، ومنهم من كان يقول : إنهم ثلاثة آلهة ، وهي مقالة مرقيون اللعين ، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح ، وهي مقالة بولس الرسول ، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً » .. إلى آخر ما كتبه الكاتب المذكور . وبعد ذلك كتب تاريخ حياة سيدنا عيسى وأطلق على ما كتب أناجيل ، وقد جمع فابري سيوس العالم المسيحي أكثر من ٧٥ إنجيلا وطبعها في ثلاثة مجلدات . ويذكر كلمنس اسكندر يانوس أن الأناجيل الأربعة المعروفة الآن أصبحت واجبة التسليم بها عند الكنيسة في أول القرن الثالث الميلادي ، فاين الإنجيل الذي كان معمولا به قبل ذلك ؟ بل أين إنجيل سيدنا عيسى عليه السلام الذي ورد خبره في الأناجيل الأخرى ، وفي رسائل الرسل ، فنجد في إنجيل مرقس الإصحاح الأول ١٤ ، ١٥ النص الآتي : « وبعد ما أسلم يوحنا جاء

يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » . وفي رسالة بولس إلى أهل رومية الإصحاح الأول ٩ : « فان الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم » .

أين هو هذا الإنجيل الذي جاء ذكره في الأناجيل تحت اسم إنجيل المسيح ؟ إذ لا يوجد الآن إلا إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا .

ثم إن الكتب المقدسة قد نزلت قطعاً بلغة قومها ثم ترجمت إلى لغات أخرى ، وتكررت ترجمتها من لغة إلى أخرى إلى أن ترجمت إلى اللغة العربية بألفاظ يظهر فيها عجز مترجمها في اللغة ، الأمر الذي سبب اختلافاً كبيراً بين الكتب الأصلية والمترجمة ، بل وبين التراجم بعضها وبعض .

ومن أوضح الأدلة التي تؤكد أن الكتب المقدسة كما نزلت على الرسل بشرت بنبوة سيدنا محمد أن اليهود والنصارى الذين كانوا على علم بأصول دياناتهم كانوا أسرع في الدخول إلى الإسلام من عبدة الأوثان والأصنام ، إذ أن أول من آمن بنبوة محمد على وجه الإطلاق هو الراهب النصراني ورقة بن نوفل ، وقد عرف عنه أنه ممن درسوا ديانتهم دراسة عميقة ، بل أنه نقل بعض الأناجيل إلى العربية ، وكان هو ابن عم خديجة التي ذهبت تخبره بما حدث لزوجها محمد في الغار إذ جاءه ملك يقول له : « اقرأ » فأطرق ورقة مليا وقال :

« قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » . ولقي ورقة محمداً يطوف بالكعبة بعد ذلك فقال له قوله المشهور: « والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبن ولتوءذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ، وقبل رأسه وانصرف . ألا يكون بهذا ورقة قد آمن بنبوة محمد ؟ .. وألا يكون أول من آمن به ؟ ..

والراهب بحيرى أعلم أهل زمانه بالنصرانية مرَّ به أبو طالب في تجارة له ومعه سيدنا محمد قبل أن يبعث ، فينزل بحيرى من صومعته ويدعو القافلة للضيافة وذلك على غير عادته منها ، وعندما يذهب القوم إلى طعامه ينظر الراهب إليهم فيسأل : هل غاب منهم أحد ؟ فيجيبون بالنفي فيما عدا غلاما صغيراً ، فينادي عليه بحيرى ويجلسه بجواره ويأخذ يسأل عن أحواله في نومه ويقظته وهيئته وأمره ، ثم ينظر إلى ظهره ويسأل عمه أبا طالب قائلا : « ما هذا الغلام منك ؟ » فيجيبه : « ابني » ، فيقول الراهب : « ما هو ابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً » ، فقال أبو طالب : « إنه ابن أخي » . قال الراهب : « فما فعل أبوه ؟ » . قال : « مات وأمه حبلى به » . قال بحيرى : « صدقت ، فارجع به إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً . إنه كائن لابن أخيك

هذا شأن عظيم » . لقد رأى بحيرى غمامة تظل الجمع وهم في سيرهم ، وهي إحدى علامات نبوة محمد ، ثم سأل عن يتمه وعن حاله ، ثم رأى خاتم النبوة بين كتفيه في ظهره .. لقد تحدث الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى بأمر الرسول قبل مبعثه لما تقارب زمانه .

واليهود والنصارى الذين آمنوا بنبوته وكانوا على علم بموعده وأوصافه وصفاته كثيرون . بل إن يهود يثرب قد أرسلوا إليه رسلهم يدعونه إلى بلدتهم ، حيث أنهم يعلمون أنهم في انتظار نبي جاء موعده . ويحدثنا التاريخ عن إسلام بعضهم مثل سلمان الفارسي ابن شيخ قرية في أصبهان ، وكان ثريا ، فخرج إلى ضيعته مرة فمر بكنيسة أعجبه فيها صوت المصلين ، فلما سأل عن أصل هذا الدين وعرف أنه بالشام ذهب إليها حيث لازم أسقفا في كنيسة ، وعندما شارف الأسقف الموت أوصاه أن يذهب إلى أسقف في كنيسة حددها ، وهذا بدوره أوصله إلى رجل بعمورية من أرض الروم فقال له : « بم تأمرني وقد جئت لك من بلاد بعيدة ؟ » قال له : « أي بني ، لقد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجر إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة . إن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » . وأعطى سلمان الفارسي بقراته لقافلة كانت تمر حتى ترشده إلى البلد الذي وصفه له رجل عمورية ، وباعوه إلى رجل يهودي في بلد بها نخل ، فسمع القوم

يقولون : إن الناس يجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي . وجمع سلمان بعض التمر وذهب إلى سيدنا محمد ويقول سلمان : « فدخلت عليه فقلت له : بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم . وقربته إليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا ؛ وأمسك يده فلم يأكل . فقلت في نفسي : هذه واحدة . ثم انصرفت ، وجمعت شيئا من التمر مرة أخرى وقلت له : إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . فأكل منها الرسول وأمر أصحابه أن يأكلوا . فقلت في نفسي : هاتان اثنتان . ثم جئت رسول الله وهو ببقيع المدينة وقد شيع جنازة رجل من أصحابه ، وسلمت عليه واستدرت إلى ظهره فوجدت الخاتم ، فعرفته وأسلمت » .

وكان من حديث عبدالله بن سلام حين أسلم وكان حبراً عالما قال : « لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوقع له ، فكنت مسراً لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، فلما سمعت الخبر كبّرت ، فقالت عمّي لي حين سمعت تكبيري : خيبك الله . والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران تقادما ما زدت على ذلك . فقلت لها : أي عمة ! هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بُعث بما بُعث به . فقالت : أي ابن أخي..أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

فقلت لها : نعم . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له : يا رسول الله إن يهود قوم باطل ، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم . فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ودخلوا ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن بهوأصدقه وأعرفه » .

ومخيريق ، وكان حبرا عالما ورجلا غنيا كثير الأموال ، عرف رسول الله بصفته وما يجده في علمه ، جمع اليهود وقال لهم : « يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق » . وخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد وأسلم وقال للرسول : « لقد عهدتُ إلى قومي إن قُتلتُ اليوم لتأخذن أموالي ولتصنعن بها ما ترى » : ومعروف في السيرة أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، وكانوا ينتظرون بعثه ويقولون : « سيكون النبي الأخير من بيننا » . أما من ظل من اليهود على ديانته ولم يؤمن برسول الله فقد كان ذلك إما للحقد والحسد ، وإما لضعف في العقل وقلة في الفكر مثل فنحاص الذي رفض الإسلام إذ عرضه عليه أبو بكر فقال فنحاص ما يؤكد جنون

إذ قال : « ما بنا إلى الله من فقر وانه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ، و لو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم » . وضربه أبو بكر ضرباً شديداً .. ثم هؤلاء الملوك والأباطرة الذين آمنوا به بعد أن تحققوا أنه قد بشرت به الكتب المقدسة وهو على بعد كثير منهم مثل أصحمة النجاشي . فعندما وفد عليه المهاجرون من المسلمين طلب أن يسمع منهم بعضاً مما جاء به نبي الإسلام ، فتليت عليه آيات من سورة مريم ، فبكى هو وأساقفته ، وقال النجاشي : « إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » وأعلن إسلامه . ويوم أن مات النجاشي نعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال لهم : « مات اليوم رجل صالح ، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة » . وخرج بهم إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات وصلى عليه صلاة الغائب وصلى عليه المسلمون معه . . ولا يتسع المجال لإحصاء من دخلوا في دين الإسلام من اليهود والنصارى الذين اعترفوا أنهم عرفوه مما جاء عنه في كتبهم. ومنهم من صرح بالبشارة بنبي الإسلام قبل بعثه ، إذ أنه لما بعث عليه الصلاة والسلام ووفد عليه وفد عبد القيس سألهم : « من يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟ » . قالوا : « كلنا نعرفه» . قال : « فما فعل ؟ » . قالوا : « هلك » . فقال عليه الصلاة والسلام : « لست أنساه على جمل أورق وهو يتكلم بكلام له حلاوة ولا أحفظه » . قال أبو بكر : « إني أحفظه يا رسول الله فقد كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ حيث

قال : إن لله دينا هو احب إليه من دينكم ، ونبيا قد حان حينه وأظلكم أوانه » .

أليس في ذلك الدليل الذي لا شك فيه أن الكتب المقدسة التي نزلت قبل القرآن الكريم قد بشرت بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل إننا لنجد في الكتب المتداولة بعض أقوال تشير بصراحة ووضوح إلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

ففي التوراة المتداولة نجد في سفر التثنية الإصحاح ١٨ ما نصه :

« أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

والكلام من الله سبحانه لسيدنا موسى عليه السلام عن بني إسرائيل وهم بنو إسحق ، وإسحق هو أخو إسماعيل ، فاخوان بني إسرائيل هم بنو إسماعيل ، وسيدنا رسول الله من بني إسماعيل . وصفة هذا النبي يكون مثل سيدنا موسى . والقول ينطبق على سيدنا محمد ، فهو مثله ولد من أب وأم ، وتزوج ، وأنجب ذرية ، وأتى بشريعة كموسى تماما . وأجعل كلامي في فمه : أي يكون النبي أمياً فيوحي الله إليه بما ينطقه . وهذا يطابق فعلا سيدنا رسول الله كما جاء عنه في القرآن الكريم :

« فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النبيِّ الأميِّ الذي يُؤْمِنُ بِالله وَكلمَاتِه وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ » ، « ومَا يَنطِقُ عنِ الهَوَى . إن هُوَ إلاَّ وَحيٌ يُوحَى » .

ولا ينطبق هذا الوصف على نبي غير سيدنا محمد إطلاقا ..

وفي الاصحاح ٣٢ :

« هم أغاروني بما ليس إلها . أغاظوني بأباطيلهم . فأنا أغيرهم بما ليس شعباً . بأمة غبية أغيظهم » .

والعرب لم يكونوا شعباً بمعنى الانتظام ، وكانت أمتهم قبل الإسلام في غاية الجهل والضلال ، ويقول في ذلك القرآن الكريم :

« إذ بَعثَ فِيهم رَسُولا مِّن أنفُسِهم يَتلو عَليهم آياته ويُزَكيهم ويُعلِّمُهم الكِتَابَ وَالحكمَةَ وإن كانوا مِن قَبلُ لَفي ضَلال مُبين » ، « ألأعرابُ أَشَدُّ كُفراً وَنِفاقاً وأَجدَرُ ألاَّ يَعلَمُوا حُدود مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلى رسُولِهِ واللهُ عَليمٌ حكِيمٌ » .

وفي الإصحاح ٣٣ :

« وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمنه نار شريعة لهم » .

هذه البركة هي نبوءة بالاديان الثلاثة ، فكما أعطى الله موسى التوراة من جبل الطور بصحراء سينا ، سيشرق لهم من سعير ، وسعير مدينة على بعد كيلو ونصف من مدينة بيت لحم وتسمى حالياً (بيت ساحير) ، أي مدينة الرعاة ، وفيها ظهرت الملائكة للرعاة يبشرون بمولد المسيح ، وبها كنيسة محفورة في الصخور تحت الأرض تسمى كنيسة الرعاة .

أما فاران فهي برية بين ثلاثة جبال بمكة هي : أبو قبيس وقعيقعان وجبل حراء ، وفيها سكن إسماعيل بن إبراهيم ، وقد ورد في التوراة في سفر التكوين الإصحاح ٢١ أن إبراهيم أسكن ولده برية فاران، والمعروف أنه أسكنه بجوار الكعبة ، فتكون فاران هي مكة باعتّراف التوراة نفسها ، وتكون النبوءة هي نزول الوحي بمكة وهذا لم يتم إلا لسيدنا محمد . وربوات القدس هي الجبال التي حول الكعبة التي خرج منها رسول الله وبيمينه شريعة الإسلام .

وفي سفر أشعيا الإصحاح الثاني :

« ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجري إليه كل الأمم . وتسير شعوب كثيرة ويقولون ـ هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب » .

والمنسك الذي يسعى فيه الناس فوق التلال ، وتجري إليه الأمم من مختلف أنحاء العالم ، وتسير إليه الشعوب المختلفة الكثيرة ، ويصعدون إلى الجبال متوجهين إلى بيت الله الحرام هو الحج في الإسلام ؛ إذ يصعد المسلمون إلى جبل عرفات ويطوفون بالكعبة الشريفة ، وهذا قد تم في آخر الأيام أي في آخر الأديان .

وفي الإصحاح ٢١ :

« لأنه هكذا قال لي السيد اذهب أقم الحارس . ليخبر بما يرى. فرأى ركاباً أزواج فرسان. ركاب حمير .ركاب جمال.

فأجاب وقال : سقطت .. سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض » .

وهذه نبوءة بالأديان الثلاثة ، فراكب الفرس هو سيدنا موسى ، وراكب الحمير هو سيدنا عيسى الذي عرف أنه كان ينتقل بها بنص الأناجيل ، وراكب الجمل هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وناقته القصواء معروف تاريخها ، فكان دائما ينتقل عليها . أما الذي حطم تماثيل الآلهة فهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخل الكعبة وحطم ما فيها من الأصنام ونزع ما كان عليها من صور وتحطمت التماثيل وهو يقول :

« وقلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كـان زَهُوقاً » .

وفي نفس الإصحاح .

« وحي من جهة بلاد العرب . في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء. وافوا الهارب بخبزه . فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب » .

لم تحدث هجرة في الوعر في بلاد العرب وبات فيهـا المهاجرون في هذا الوعر إلا هجرة سيدنا محمد وصاحبه أبي بكر . وقد هربا من أمام السيوف ، فقد اتفقت قريش على قتله بدليل القرآن الكريم ومن آياته :

« وإذ يَمــكُرُ بِكَ الذِينَ كفَرُوا ليُثْبِتُوك أو يَقْتُلوكَ أَو يُخرِجُوكَ ، وَيمــكرُونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرِين »

والددانيين نسبة إلى أدد أحد أجــداد سيدنا محمد عليه الصلاةوالسلام، أما تيماء فهي مدينة بالحجاز بجوار الحسن ، وهي في منتصف الطريق بين تبوك والمدينة المنورة وهو الطريق الذي سلكه الرسول في هجرته .

وفي الإصحاح ٢٥ :

« يارب أنت إلهي أعظمك ، أحمد اسمك لأنك صنعت عجباً . مقاصدك منذ القدم أمانة وصدق . لأنك جعلت مدينة رجمة. قرية حصينة ردماً. قصر أعاجم أن لا تكون مدينة: لا يبنى إلى الأبد. لذلك يكرمك شعب قوي وتخاف منك قرية أمم عتاة».

ولا نعرف لفظ أحمد هنا أهو اسم أم المقصود حمد الله ؟ فان كان اسما فهو اسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يكن فهو للحمد ، وباقي الفقرة يشير إلى نبوة رسول الإسلام ، فمقاصده الأمانة والصدق وهما صفتان عرف بهما رسول الله فكان لقبه من قبل البعث الصادق الأمين. والمدينة الرجمة التي أصبحت قرية حصينة هي المدينة المنورة ، وقد انتهت دولة المجوس الأعاجم بالإسلام . أما الشعب القوي فهو العرب إذ عرفوا بالقوة والقسوة والبطش والشدة ، وقرية الأمم هي مكة التي كان يطلق عليها أم القرى وذلك بدليل قول الله تعالى :

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلناهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذِي بَينَ

يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَن حَوْلَهَا » .

وفي الإصحاح ٤٢ :

« هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم . لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء . إلى الأمان يخرج الحق . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته » .

وهذه الفقرات تشير إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو النبي الذي أرسل للأمم كافة بينما كافة الرسل والأنبياء أرسلوا لأقوامهم فقط بدليل الآيات الشريفة :

« وإلى عاد أخاهم هوداً » ، « وإلى ثمود أخاهم صالحاً » ، « وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً » ، « لَقَد أَرسَلْنَا نُوحاً إلىَ قَوْمِهِ » ، « وَلَقَدْ أَرسَلْنا مُوسَى بِآيَاتِنَا إلَى فِرْعَون وَمَلَئِهِ » ، « وَإذ قالَ عِيسى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرائِيل إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم » . أما عن سيدنا محمد فتقول الآيات : « وَمَا أَرْسلنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ » « وَمَا أَرْسَلناكَ إلا كافَةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونذيراً » ، « قُلْ يَأيهَا النّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إليْكُم جَمِيعاً » . ولم يكن يصيح ولا برتفع صوته بل كان يؤذيه الصوت المرتفع ،وقد نزلت آيات في القرآن بذلك منها : « يَأَيُّها الذِينَ آمَنوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبي » ، « إن الذِينَ

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الذِينَ امْتَحَن اللهُ قُلوبهُم للتَّقْوَى » ، وأوصى القرآن بذلك بنص الآية : « واغضُض مِن صَوْتِكَ ، إنَّ أنكرَ الأصْوَاتِ لصوتُ الحَمِيرِ » . والمرضوضة هي بلاد الحجاز . والفتيلة الخامدة التي لا تُطفأ هي شريعته لأنها آخر الشرائع . وسيدنا رسول الله هو الذي لم ييأس من جهاده أي لم يكل ولم ينهزم في غزواته أي لم ينكسر . وقد وضع الحق للعالم كله في الأرض وكانت آخر آيات القرآن : « اليَوْمَ أكمَلْتُ لَكُم دِينَكم وأتْمَمْتُ عَلَيكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً » .

وفي الإصحاح نفسه :

« غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون في البحر وملوءه الجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع . من رءوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر » .

والأغنية الجديدة التي للرب هي ديانة جديدة . والتسبيح هو من ضمن ما دعا إليه الإسلام واهتم به بدليل مثل الآية :

« وَسبِّحْ بحمدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشّمسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ . وَمِنَ اللّيْلِ فَسَبِّحهُ وَأَدْبَارَ السُّجودِ » ، «يَأَيُها الذِينَ آمَنُوا اذْكرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً . وسَبِّحوهُ بُكرَةً وأصِيلاً » .

أما مكان الدعوة إلى الدين الجديد فمن الديار التي سكنها قيدار . وقيدار قد جاء في سفر التكوين الإصحاح ٢٥ ما نصه بشأنه : « وهذه مواليد إسماعيل بن ابراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم . وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : بنايوت بكر إسماعيل وقيدار وادبئيل ومبسام » . فيكون قيدار هو ابن إسماعيل ، ومعروف أن إسماعيل سكن مكة ، أي أن الدين الجديد يخرج من مكة . أما سالع فهي جهة معروفة في المدينة المنورة وفيها كانت واقعة الأحزاب ، وجبل سالع بأطراف المدينة من ناحية الشمال . ومن رءوس الجبال يهتفون في مناسك الحج إذ يذهبون إلى جبل عرفات ويذكرون الله ويسبحون بحمده ويستغفرونه ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« فَإِذَا أَفَضْتُم مِن عرفَات فاذْكرُوا اللهَ عِنْدَ المشْعَرِ الحَرَامِ واذكروهُ كمَا هَدَاكم وإن كُنتُم مِّنْ قبله لَمِنَ الضَّالينَ »

وهذا كله يطابق دين الإسلام وتبشير صريح بنبي الإسلام .

وفي الإصحاح ٥٤ :

« ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد ، أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب. أوسعي مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك . لاتمسكي أطيلي أطنابك وشددي أوتادك . لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة » ..

والعاقر هي بلاد العرب التي لم تنجب نبياً أو هادياً أو مصلحاً إطلاقاً ، أما وقد أراد الله أن يهبها نبي الإسلام ، فيناديها الله أنها سيتسع عمرانها وتمتد مبانيها ومساكنها إلى اليمين وإلى اليسار . وقد حدث ذلك بالإسلام . ثم إن المسلمين عمروا كل المدن الخربة التي كانوا يفتحونها بالإسلام .

وفي الإصحاح ٦٠ :

« ارفعي عينيك حواليك وانظري . قد اجتمعوا كلهم . جاءوا إليك . يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا . تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب . كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش بنايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي » .

وهل يحدث ذلك في غير مكة ؟ .. وهل غير المسلمين من يفعل ذلك ؟ وهل في ديانة غير الإسلام ذلك ؟ إنها مكة التي يجتمع الكل عندها ويأتيها الأبناء والبنات من كل مكان وذلك في الحج بنص الآية الشريفة :

« وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأتُوكَ رِجالا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » . أما الغنم والكباش فإن المسلمين في الحج يذبحونها كما جاءَ في القرآن الكريم : «وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمرَةَ لله فإن أُحصِرتم فَمَا استَيسَرَ مِن الهَدي ولا تحلِقُوا رُءُوسَكم حَتى يَبلُغَ الهَديُ مَحِلّهُ فمَن كانَ

مِنكُم مَرِيضاً أَو بهِ أَذًى مِن رأسِهِ فَفِديَةٌ مِن صِيَام أَو صَدَقةٍ أَو نُسُكٍ فإذا أَمِنتُم فمنْ تمتّعَ بالعُمْرَةِ إلى الحَجِّ فما استيسرَ مِنَ الهدْيِ » . وقيدار هو ابن إسماعيل الذي سكن مكة كما سبق بيانه بنص التوراة .

وهذا تبشير بالدين الجديد الذي طابق الإسلام مطابقة تامة .

وفي الإصحاح ٦٥ :

« أصغيت إلى الذين لم يسألوا . وجدت من الذين لم يطلبوني. قلت هأنذا هأنذا لأمة لم تسم باسمي . بسطت يدي طول النهار إلى شعب متمرد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره » .

وهذه الفقرة عن بلاد العرب ؛ لأن العرب لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذات الله أو صفاته وشرائعه وما كانوا سائلين عن الله ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِم وعَلى سَمْعِهِم وعَلى أبصارِهِمْ غِشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ » والشعب المتمرد الذي كان يسير في طريق غير صالح وراءَ أفكاره هو الشعب العربي قبل الإسلام بنص القرآن الكريم : « وإذا قيلَ لهُم لا تُفسِدُوا في الأرضِ قالوا إنما نَحن مُصْلِحون . أَلا إنهُم هُم المُفسِدُونَ ولكِن لا يشْعُرُون . وإذا قِيلَ لَهُم آمنُوا كما آمَنَ النّاسُ قالوا أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفهاءُ أَلا إنّهُم هُم السُّفَهاءُ وَلكِن لا يَعلَمُونَ » .

وفي صلاة حبقوق الإصحاح الثالث :

« الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران . سلاه جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور . له من يده شعاع وهناك استتار قدرته . قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى . وقف وقاس الأرض . نظر فرجف الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم . مسالك الأزال له . رأيت خيام كوشان تحت بلية . وجفت شقق أرض مديان » .

وتيمان حيث سكنت قبيلة بني تميم بجوار غار حراء حيث كان يتحنث الرسول عليه الصلاة والسلام وفيه أول ماجاءه الوحي . وجبل فاران بمكة حيث أعلن الرسول الدعوة على قومه . والشعاع الذي بيده هو القرآن الكريم . والحمى والوباء هما الشرك والضلال . وخسفت المعتقدات القديمة ومسالك الأزل له أي دعوة الدين الأول . والعودة به أي دين إبراهيم بنص الآية :

« قُل إنّني هَدَانِي ربيّ إلَى صِرَاط مُسْتَقِيم.دِيناً قِيماًمِلّةَ إبْراهِيم حنِيفاً » .

وخيام كوشان بلية أي ذهاب حكم ملوك أفغانستان . وجفت شقق أرض مديان ، وقد تحقق ذلك إذ انْشَق إيوان كسرى ليلة مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

هذه أمثلة لما جاء في التوراة من بشارات نبوة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها كثير .

أما في الأناجيل فان من ضمن النصوص التي جاءت بها ما تجده في إنجيل برنابا ، وهو أحد تلاميذ السيد المسيح عليه السلام ، وقد صرح بنبوة سيدنا محمد باسمه صراحة دون تلميح ، ففي الإصحاح ٣٩ نجد : « فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ففتح آدم فاه وقال : أشكرك أيها الرب إلهي ؛ لأنــك تفضلت فخلقتني ، ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات : محمد رسول الله ؟ فأجاب : مرحباً بك يا عبدي آدم ، وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء الذي منها جاء . سيعطي نوراً للعالم الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً . فتضرع آدم إلى الله قائلا : يا رب هبني هذه الكتابة على أظفار أصابع يدي . فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه. على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصه : « لا إله إلا الله » ، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى : « محمد رسول الله » ، فقبل الإنسان الأول بحنو أبوي هذه الكلمات ومسح بها عينيه وقال : بورك ذلك اليوم الذي ستأتي فيه إلى العالم » . وحتى الآن نجد أن من المسلمين من إذا سمعوا الأذان للصلاة يمسون الإبهامين ويقبلونهما ويمسحون بهما أعينهم إذا ما نودي بالشهادتين . وفي إصحاحات كثيرة من هذا الإنجيل بشارات واضحة عن رسول الله ونبي الإسلام

محمد بن عبد الله . ولكن المسيحيين يقررون أن هذا الإنجيل ليس معترفا به منهم اعتقاداً منهم أن المسلمين قد وضعوه . ولكن يقرر التاريخ أن أقدم نسخة عثر عليها من هذا الإنجيل مكتوبة باللغة الإيطالية عام ١٧٠٩ ، وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا إلى البلاط الملكي بفينا . وليس هذا التاريخ هو أول ماجاء فيه ذكر لهذا الإنجيل ، إذ يقول الدكتور سعادة في أبحاثه عن هذا الإنجيل: إن البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الاريكة البابوية عام ٤٩٢ عدد أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا . أي أنه كان قبل ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وليست البشارات مقصورة على هذا الإنجيل بل إننا نجد في الأناجيل المتداولة بشارات كذلك .

ففي إنجيل متى الإصحاح الثالث ما نصه :

« وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » . وليس اقتراب ملكوت السموات هو البشرى بسيدنا عيسى عليه السلام إذ أنه بشر هو بنفسه باقتراب ملكوت السموات بنص الاصحاح الرابع : « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .

وليس ملكوت السموات هو قيامة الساعة إذ ورد بذلك نص في إنجيل لوقا الإصحاح ٢١ : « هكذا أنتم أيضاً متى رأيتم هذه الأشياء صائرة فاعلموا أن ملكوت الله قريب. الحق أقول

لكم إنه لا يمضي هذا الجيل حتى يكون الكل » . وقد مضى الجيل وأجيال ولم تقم الساعة إنما أتى النبي الذي أرسل إلى الكل . ألا تكون البشارة بملكوت السموات هي الدين الإسلامي ؟ وقد قدم السيد المسيح عليه السلام أمثلة لملكوت السموات كثيرة ، فمنها ما جاء في الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى ونصه : « (قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانا وسط الحنطة ومضى فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً » . ثم يقرر في إنجيل لوقا الإصحاح الثامن أن الزرع هو كلام الله إذ النص هو : « فقال لكم قد أعطى أن تعرفوا أسرار ملكوت الله . وأما للباقين فبأمثال حتى أنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يفهمون وهذا هو المثل . الزرع هو كلام الله » . فهلا يكون كلام الله الذي بشر باقترابه السيد المسيح هو القرآن الكريم ؟

وفي الإصحاح السابع :

« احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتوكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة . وأما الشجرة الرديئة فتصنع أثماراً رديئة لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً رديئة ، ولا شجرة رديئة أن تصنع أثماراً جيدة كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار فاذا من ثمارهم تعرفونهم » .

لم يقل السيد المسيح احترزوا من الأنبياء فيكون التقرير قاطعا بأنه لم يعد هناك أنبياء بعده ، ثم أخبر بأن نمتحن الأنبياء من ثمارهم ، فكأن هناك أنبياء سنعرفهم من ثمارهم الرديئة وغيرهم نعرفهم من ثمارهم الجيدة . وهذه بشارة بأن بعده سيكون أنبياء ونعرفهم من ثمارهم ، فهل هناك ثمرة أفضل مما جاء به الإسلام ؟

وفي إنجيل يوحنا الإصحاح الأول :

« وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت . فاعترف ولم ينكر وأقر إني لست أنا المسيح فسألوه إذاً ماذا. إيليا أنت؟ فقال: لست أنا النبي أنت ؟ فأجاب : لا» ،« فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟ ».

أي أنه بعد المسيح سيكون إيليا ثم نبي منتظر معروف لهم ولذلك قالوا النبي ولم يقولوا نبي . وهذا يدل على أنه كان معروفا قبل المسيح أن القوم ينتظرون بعد المسيح نبياً معلوما لهم.

وفي الإصحاح ١٤ :

« إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم » .

وهذه بشارة بنبي آخر ، أما متى يكون زمان هذا النبي فقد جاء في الإصحاح ١٦ ما نصه :

« لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي » .

أي أن النبي الآخر سيكون بعد أن ينطلق السيد المسيح . أما أن النبي وصف بأنه آخر أي مشابه لمن قبله وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« قُل ما كُنْتُ بدعاً مِنَ الرُسُل » . فيكون النبي الذي بشر به السيد المسيح هو سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم . أما أنه ماكث معهم فما ذلك إلا لأن دينه هو الدين الأخير وهو خاتم النبيين ويكون فيهم كذلك وبنص القرآن : « لَقد جَاءَكم رَسُولٌ مِن أنْفُسِكم » .

وفي رؤية يوحنا اللاهوتي الإصحاح ١٩ :

« ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب » . وهذه نبوءة بسيدنا رسول الله فقد كانت صفته من قبل البعثة الأمانة والصدق في القرآن الكريم بالنص :

« وَأُمِرت لأعدلَ بينكم »

أما عدله في حربه فليس أوضح مما يقول القرآن الكريم في الآية الشريفة :

« ولا يجرِمَنّكم شَنَآن قومٍ ألا تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى » ..

هذه بعض البشارات التي وردت في الأناجيل المتداولة ، أما ما حدث من تغيير المعاني في آيات أخرى بالترجمات المتكررة

فان السيد عبد الأحد داود المسيحي الذي أسلم قد قدم بعضاً منها في بحوث لغوية طويلة ، فقد فسر ما جاء في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني ونصه : « وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموي مسبحين الله وقائلين : المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » ، وهذه هي الترجمة العربية الكثيرة الانتشار ، وترجمة جمعية الكتاب المقدس التي نصها : « الحمد لله في الأعالي ، وعلى الأرض سلامة ، وفي الناس حسن الرضا » . فقال سيادته : إن هؤلاء الأملاك لم يتكلموا العربية ، ولو تكلموها ما فهمها الرعاة السوريون ، ولما كانت طبيعة الرعاة ألا يعرفوا لغات أجنبية فتكون الأنشودة نزلت باللغة السريانية أي لغة الرعاة . وقطع سيادته أن ترجمة الكلمتين السريانيتين إلى « السلام والمسرة » أو « السلامة وحسن الرضا » ترجمة خاطئة . فأي سلام شهدته الأرض منذ خلقها الله ؟ وقد دنسها أحدُ ابْنَيْ آدم حين قتل أخاه في مطلع البشرية ، واستمر القتل حتى العهد الحاضر ، وأصبح طبيعياً للنوع البشري أن يعيش عيشة تكاد تكون مستمرة بين الفجائع والحروب والاختلافات . وكذلك أي مسرة في الناس أو حسن رضا ؟ .. أليست الحياة هي الدموع والعرق والكفاح والآلام التي يعانيها الجنس البشري ؟ وأين حسن الرضا والأطماع لا تحد والكفاح لا يني ؟

ويقول سيادته إنه مما يؤيد بطلان هذه الترجمة أن تولستوي المفكر الروسي الشهير كتب مؤلفا عن الأناجيل الأربعة ورتب

منها كلها إنجيلا واحدا ، ولم يثبت هذه الآية زاعما أنها من الآيات المحرفة ومن لغو القول . وقد أورد السيد عبد الأحد بحثا عن كلمتي : « إيريني وأيادوكيا » ، وأثبت أن الأولى معناها الإسلام والثانية أفعل تفضيل من الحمد أي أكثر الحمد أو أحمد ، ومعنى الآية يكون على ذلك : « الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض الإسلام وللناس أحمد .

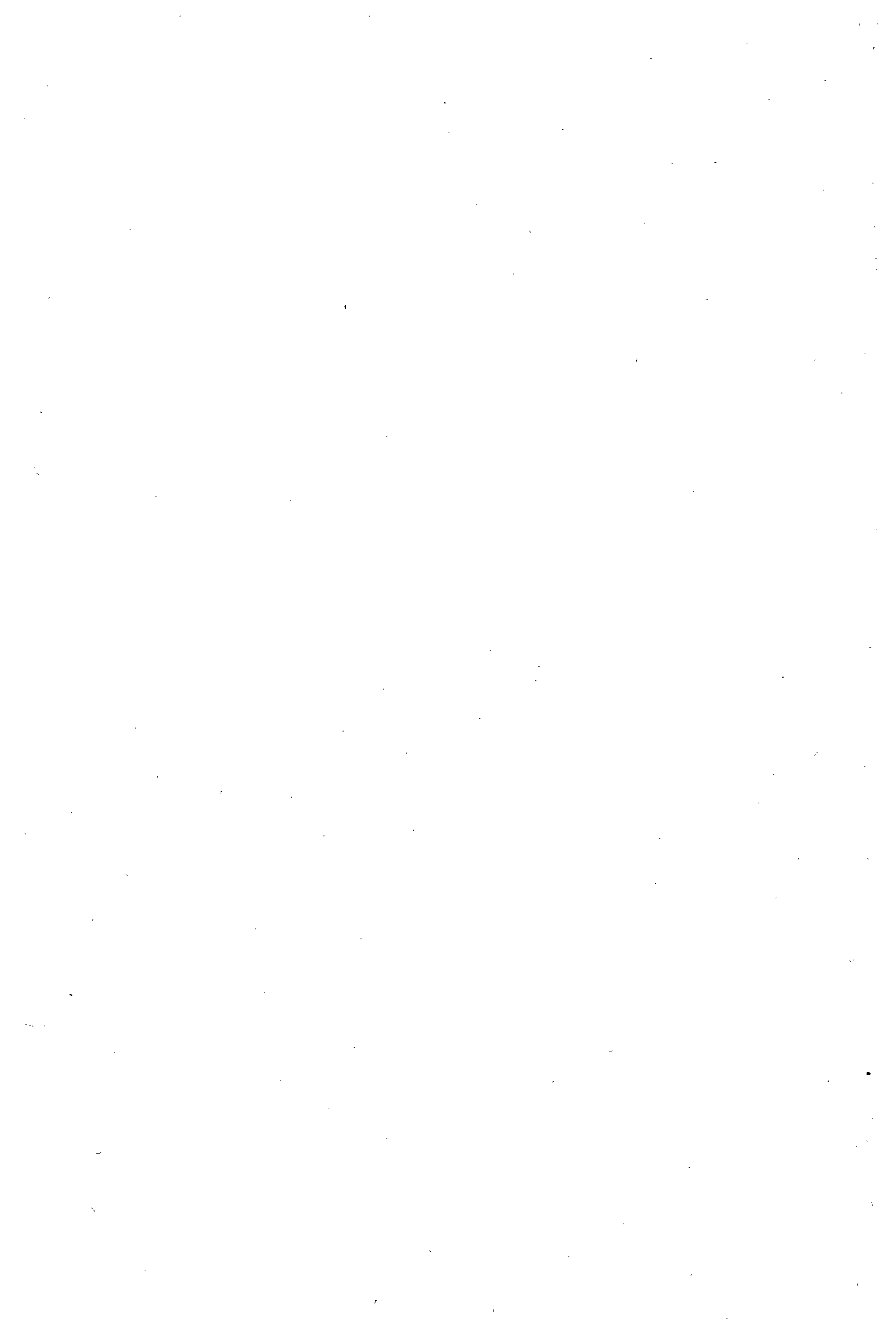
وبعد هذه الأدلة بما كان يعرفه الأحبار والرهبان من أصول دياناتهم من أن نبياً أظل زمانه ، وبما ورد في الكتب المقدسة من بشارات بنبي وردت أوصافه وسماته وأصول ديانته ...

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبياً ؟ »

انتشار الإسلام

« فأمّا الزَّبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً وأَمّا ما يَنفَعُ النّاسَ فَيمكُثُ في الأرْضِ » .

(سورة الرعد ــ ١٧)



بدأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهر بالدعوة عندما أمره الله سبحانه وتعالى بذلك في الآية الشريفة :

« وأَنْذِر عشِيرتَكَ الأقْربِينَ . واخْفِضْ جنَاحَكَ لِمَن اتّبعَكَ مِن المؤْمِنينَ . فَإن عَصَوْكَ فَقُل إنيّ بريءَ مِمّا تَعْمَلُونَ » .

وكان ذلك بعد ثلاث سنين من حين البعث ظل المسلمون الأولون يستخفون فيها لعلمهم بما تعده قريش لهم من أذى واعتداء ، وظل الرسول يعمل لنشر الدعوة سراً طوالها وذلك باجتماعه في دار الأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة في الإسلام ، وسميت لذلك داره بدار الإسلام .

ولم تقم الدعوة إلى الإسلام إلاّ عن طريق الإقناع والعقل ؛ لذلك فقد أسلم كل من كان له عقل أو قلب سليم أو بصر أو بصيرة واعية . واحتمل المسلمون في سبيل دينهم أذى ما كان ليخطر على بال إنسان . فهذا بلال بن رباح يخرجه قومه ويطرحونه على أرض الصحراء في قيظ الظهيرة إذا ما انتصف النهار ولفحت الشمس ، ويضعون فوق صدره كتلا من الصخر

لا يحتملها إنسان ، وكلما أسرفوا في تعذيبه ارتفع صوته : « أحد، أحد » . لعله يلقى الله فلا يكون على لسانه غير ذكر الله . وهذا عمار ابن ياسر يخرجه قومه ومعه أبوه وأمه إلى العراء تحت الشمس ، ويضربونهم بالسياط ويحرمونهم المـــاء والغذاء ، فيموت الأب من عذابه ، ويقتل أبو جهل الأم بسلاحه ؛ أما عمار فيشتد عليه عذابهم ويقولون له : لن نتركك حتى تقسم علينا باللات والعزى ؛ فلا يسمعون منه إلا : « لا إله إلا الله .. محمد رسول الله » . وهذا خباب بن الأرت عذبه قومه حتى أنهم أداروا رأسه فأصبح به عاهة وأي عاهة .. ولم يترك دين الله بعد أن هداه إليه . وصهيب بن سنان الرومي ، وعامر بن فهيرة ، وحتى النساء أمثال لبينة جارية بني مؤمل بن حبيب ، وأم عنيس . وحتى سيدنا رسول الله لم يسلم من أذاهم فقد كانوا يضعون الشوك والقذر في طريقه ويلقون على رأسه التراب وهو ساجد لله ، بل خنقه عقبة بن أبي معيط حتى كادت نفسه تفيض لو لا أن تداركته رحمة الله فأرسل أبا بكر يخلصه منه ويقول : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ » .

واشتد بالمسلمين أذى قريش ، ولكنهم لم يقابلوا الإساءة بمثلها ، ولم يعتدوا على المعتدين ، وما أيسر الاعتداء وما أهون رد الإيذاء . فهل كان يعجز المسلم عن الاقتصاص من كافر أو مشرك إذا لقيه في دروب مكة الواسعة أو شعابها المتعددة أو في ليلها الطويل ؟ .. ولكن منعهم أن الإسلام ينادي دائماً بالصفح والمحبة والإحسان، بل إلى أكثر من ذلك.. يدعو إلى دفع الإساءة

بالإحسان وذلك بنص القرآن الكريم :

« ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئةَ نحْنُ أَعْلَمُ بمَا يَصِفُونَ » ، « وَلاَ تَسْتَوي الحسَنةُ ولا السَّيِّئةُ ادْفع بالَّتي هِيَ أَحْسن فإذا الذي بَيْنكَ وَبينه عَدَاوةٌ كأنّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

وأمرهم الرسول بالهجرة لا من مدينة إلى أخرى ولكن من بلادهم كلها ، فهاجروا إلى الحبشة وكانوا ثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة ، فهل يعتبر هذا جيشاً غازياً أو فيلقا حربياً ؟ .. إنهم أفراد مغلوبون على أمرهم في بلادهم ، فهاجروا إلى بلاد بعيدة ليس لهم فيها قريب أو حبيب ولكنها أرض الله الواسعة التي تضم كل البلاد .

وعاد المهاجرون إلى مكة مرة أخرى بعد أن استتب الأمر للإسلام ، وتركوا في الحبشة أثراً طيباً تدارسه أهالي الحبشة ، فوقر الإسلام في نفوسهم ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وتزايد عددهم بمرور الزمن حتى أصبح في الحبشة في القرن الثامن الهجري سبع ممالك إسلامية مستقلة .. وأصبح عدد المسلمين بها الآن يزيد على سبعة عشر مليون مسلم ، فهل عرف فيه هؤلاء المسلمون غير الحق ؟ .. وهل انتشر بالحق والصدق أم انتشر بالسيف ؟ .. فأي سيف كان هذا الذي يحمله ثمانون مهاجراً وقد فروا بأنفسهم من أذى أقوامهم .. لقد وجد أهالي الحبشة في الإسلام ما يجده كل متحرر قد ابتعد عن التعصب ... وجدوا فيه ما وجده أوجست كونت المشهور بإلحاده وعداوته للأديان إذ

يقول : « لا يسعني عندما أنظر إلى فريق من المسلمين وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكاثفة في أحد المساجد ، والسكون والإيمان العذب يخيمان فوق رءوسهم إلا أن أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان ويهذب النفوس ويسترق القلوب ويقوم الأخلاق ويقضي على تمرد الروح ويحوله إلى خشوع عميق وتواضع ملؤه الوجـــد والخضوع . ولقد اشتهيت أن أكون يوماً أحد أفراد هذه الأفواج الساجدة لربها فأراحت ضمائرها بهذا النوع البريء من العبادة المخلصة، ولكنني لا أدري لماذا لا أكون إلا ذلك المتمرد، ضل ولم يهتد ،وما زال يتوغل في الأعماق ؟ » .

هاجر الرسول إلى يثرب بعد أن صبت قريش عذابها عليه، وقد هاجر أنصاره ، فدعته أهالي يثرب وقد كانوا يعلمون من أحبارهم ورهبانهم أن نبياً جديداً قد آن أوانه .. وأن ديناً جديداً قد شارف زمانه .. وذهب الرسول لينشر الدعوة .. وما دعا إلى الإسلام إلا بالحسنى ، بل إنه يأمر أصحابه بأنه إذا لزم الأمر فجادلوا أهل الكتاب أن يكون ذلك بالتي هي أحسن ، عملا بقول الله تعالى في قرآنه الكريم :

« وَلا تُجادِلوا أَهْلَ الكتابِ إلاَّ بالَّتي هي أَحْسَن » ، « ادعُ إلى سَبيل رَبِّكَ بِالحكمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسنةِ وجَادلهم بِالتي هِيَ أَحْسن إنَّ ربَّكَ هُوَ أَعلمُ بمن ضَلَّ عن سَبيلهِ وهُوَ أَعلمُ بِالمهتدين » .

لم يمتشق الرسول سيفه إلا إذا اضطر إليه دفاعاً لا عن نفسه

بل عن دين الله وأهل دين الله إذ لا إكراه في الدين بنص القرآن الكريم :

« لا إكرَاهَ في الدِّين قَد تَبيّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ » ،
فإذا أظهر المهاجمون الخصوم أي رغبة في السلام سارع الرسول إليها وذلك عملا بآيات القرآن الكريم « وإنَ جَنَحُوا لِلسَّلم فاجنَحْ لهَا وتَوكل عَلى اللهِ إنهُ هو السّميعُ العليمُ ». وهكذا لم يطالب الإسلام أصحابه بنشر دينه بالسلاح ، ولم يدع إلى القتال إلا لرد عدوان على المسلمين بالنص الشريف : « فمن اعْتدىَ عَليكُم فاعْتَدُوا عليه بمثل ما اعْتَدى عَليكُمْ » ، « ولا تُقَاتِلوهُم عِندَ المسْجدِ الحرَام حتَى يُقاتِلوكم فِيه فإن قاتَلوكم فاقتلُوهم كذَلِكَ جزاءُ الكافِرين » .

أو عدوان على دين الله « وقاتِلوهُم حتّى لا تكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإن انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إلا عَلى الظّالِمينَ » . .

.. وهكذا احتفظ الإسلام بالسلام وحافظ على عزة المسلمين وكرامتهم اللتين يجب ألا يعتدي عليهما أحد .

وليس أدل على حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على نشر دين الله بالسلم من عهده الذي عاهد به قريشاً بعد ثمانية عشر عـــامـــا من بعثه ، وقد اشتد أمر الإســـلام ، ولكنه يعطي للمشركين ما لم يعطه للمسلمين من رد من خرج منهم بدون إذن

وليه ، ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين ، فكان النص : « إن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رد عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه . وإنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه ، فيدخلوها ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ولا سلاح غيرها » .

وفي الموعد المتفق عليه خرج المسلمون وعددهم ألفان وأمامهم الهدي ستون ناقة يتقدمهم الحبيب سيدنا رسول الله على ناقته القصواء ، ولم يحمل أحد منهم سلاحاً إلا سيفاً في قرابه ، ودخلوا مكة وهتافهم يدوي بين الجبال والأودية ويتجاوب بين السموات والأرض : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .. لبيك اللهم لبيك لا شريك لك .. وأتم المسلمون طوافهم حول الكعبة وأدوا مناسكهم ، وصلى النبي بالمسلمين صلاة الظهر بعد أن أذن لله بلال من فوق الكعبة . وأقام المسلمون بمكة ثلاثة أيام رأى فيها الأهالي ما جل عن الوصف .. وما حير العقل .. رجال على وجوههم النور لا يعبدون إلا الله .. لا يقترفون الإثم .. لا يشربون الخمر .. لا يأتون بمعصية ، ولا تفتنهم الحياة الدنيا .

وعاد الرسول إلى المدينة فينتشر الإسلام في مكة انتشاراً واسعاً .. بلا حرب أو سيف .. إنما بزيارة المسلمين التي دامت ثلاثة أيام ، يقف خالد بن الوليد فارس قريش ويقول في جمع من أهاليها : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر

ولا شاعر ، وآن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » . وأرسل إقراره للرسول يبايعه ويعلن إسلامه ، ثم يدخل في دين الله عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة حارس الكعبة ، وتابع ذلك جمع غفير .. وبعد شهور يطلب هؤلاء المسلمون الرسول ليدخل مكة ويطهر بيت الله الحرام من الرجس والشرك .. فيلبي الرسول الدعوة ويدخلها مع عشرة آلاف من المسلمين دون أن تراق قطرة من دماء .. لقد استراح الرسول قبيل دخوله مكة بقرب جبل هند فيجد نفسه بين قبري أبي طالب وخديجة ، ويجيل بصره في شعاب مكة حيث كان يفر إليها من أذى قريش ، وهذا غار حراء ، وهذه بقايا بيته حيث لم يتركوا له فيها شيئاً .. فلا تعتمل في قلبه مشاعر الانتقام أو القسوة .. ولكنه صلى الله عليه وسلم يبكي .. شكراً لله ..فيمتطي ناقته القصواء ، ويدخل مكة وقد أحنى رأسه الشريف حتى لامس رقبة الناقة .. ساجداً لله .. ويطوف بالكعبة وتخرج الجموع أمامه .. ثم يقول قولا يجعله يرتفع فوق الإنسانية ويبلغ به درجة من النبل ما بلغها إنسان : « يا معشر قريش ، إذهبوا فـأنتم الطلقاء » .

أبعد هذا دليل أو حجة على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ؟ وهل بلغ في العالم تسامح قدر ما بلغ تسامح المسلمين مع غيرهم ؟ ولقد اعترف بذلك بعض المنصفين من غير المسلمين ، فهذا جوستاف لوبون يقول عن المسلمين في كتابه (حضارة العرب) : « لم يفرضوا بالقوة دينهم الجديد الذي كانوا يريدون بثه في

أقطار العالم ، ولو عملوا ذلك لأهاجوا عليهم جميع الشعوب التي لم تخضع لهم . لقد أدركوا أن الأوضاع والأديان لا تفرض على الناس بالقوة ، ورأيناهم حيث دخلوا في الشام ومصر وأسبانيا يعاملون الشعوب بمنتهى الرفق تاركين لهم أنظمتهم وأوضاعهم ومعتقداتهم . وما عرفت الشعوب فاتحاً بلغ هذا القدر من المسامحة ، ولا ديناً حوى في مطلوبه هذه الرقة واللطف ، وكان أهم سبب دعا إلى قبول دينهم وأوضاعهم ولسانهم » . ويقول كارلايل الفيلسوف في كتابه (الأبطال) : « ولقد قيل كثير في شأن نشر محمد دينه بالسيف ولشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون : ما كان الدين ينتشر لولا السيف .. ولكن ما هو هذا السيف؟ إنه قوة ذلك الدين وإنه حق . إن الرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد . فرد ضد العالم أجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع إن كان ما يقوله حقاً . إن الحق ينشر نفسه بأي طريقة . لندع الحقائق تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم ، وليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى ، فانها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ونعم الحكم . ما أعدل وما أقسط وما كان أعمق جذوراً في الحق وأبعد إعراقاً في الطبيعة . فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده » . ويقول جيمس متشنر : « اعتقد الغزب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى

السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأي . فالقرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة . وقد حرص محمد على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب أي اليهود والنصارى ، ولا شك أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم في بعض الأحيان ، وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفي القرآن آيات تصور العنف الذي استخدم في هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحراراً في عباداتهم. ولعل مما يقطع بصحة ذلك ، الكتاب الذي أرسله البطريرك النسطوري إيشوياب الثالث إلى البطريرك سمعان زميله في المجمع بعد الفتح الإسلامي وجاء فيه : « ها أن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء ، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا ، وإنهم ليجلون الرهبان والقديسين ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة » .

لقد انتشر الإسلام في البلاد التي عرفت عقائده وأهدافه ولأسباب كثيرة ليس من بينها الحرب أو القتال . وما أصدق ما يقوله المؤرخ العالمي هـ . ج. ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) وهو يحقق أسباب انتشار الإسلام فيقول : « لقد تم في خمس وعشرين ومائة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا ومن قشغر على حدود الصين إلى مصر

العليا . ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه . وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً بليدة سياسياً ، تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة . كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بني الإنسان نظاماً أفضل من أي نظام آخر » .

لقد كان يكفي أن يصل إلى أي دولة فرد مسلم تاجر أو صانع في تجارة أو عمارة ، فلا يلبث بعد أن يستمع إليه الناس ويلمسوا فيه خلق الإسلام أن ينطلقوا سراعاً إلى ما يحييهم دنيا وآخرة .. إلى دين الإسلام .

فها هي ذي الفلبين يصل إليها في عام ١٨٣٠ عالم مسلم هو المرحوم كريم المخدوم العربي الجنس فيدعو إلى الإسلام فيستجيب هناك الأهالي وتصبح الفلبين الآن وبها ثلاثة ملايين مسلم . وهذه غانا التي أصبح عدد المسلمين بها حوالي خمسة ملايين مسلم يمثلون ثلاثة أرباع السكان وهم متمسكون بالدين تمسكاً يتمثل في قول رئيسهم في اجتماع إسلامي : « إن الفرد منا يعرف أن الإسلام هو الدين وأن الدين هو الإسلام ، فليس هناك فرق بين الدين والإسلام » . والصومال التي أصبحت دولة إسلامية ودخلت ضمن صحبة البلاد الإسلامية الطاهرة ، ولقد أسلم كل أهلها وعددهم ثمانية ملايين مسلم . وغمبيا التي يزداد تعداد المسلمين فيها فتكاد تصبح وكل أهلها مسلمون. وسيام التي بها ثلاثة

ملايين مسلم . والكونغو التي يزيد عدد المسلمين فيه على مليون . وغينيا التي بها ثلاثة ملايين من المسلمين . وتشاد التي تتوسط إفريقيا وبها أربعة ملايين مسلم يمثلون أغلبية ساحقة من عدد السكان . والدولة الكبرى نيجيريا التي بها ثلاثون مليون مسلم . هذا إلى غير البلاد الإسلامية. ولا يقتصر انتشار الإسلام على إفريقيا كما قد يظن ، بل إنه انتشر في أوربا وآسيا وأمريكا ، وانتشر في العصر الحديث . وأعتقد أنه لم يذكر إنسان أن المسلمين جردوا جيوشاً إلى كل هذه الأمصار في العصر الذي نعيش فيه . فها هي ذي روسيا التي يبلغ عدد سكانها مائتي مليون منهم خمسة وأربعون مليوناً من المسلمين . وها هي ذي يوغوسلافيا بها مليونان من المسلمين . والصين التي بها واحد وخمسون مليون مسلم ، والباكستان الدولة الإسلامية التي يزيد عدد المسلمين بها على ثمانين مليونا من المسلمين هم عدد سكانها ، وأمريكا التي أصبح عدد الولايات التي سجل المسلمون فيها جماعاتهم أكثر من ثلاثين ولاية من الولايات الخمسين .. لم يعد هناك دولة أو بلد في أي جهة من جهات العالم ما دام فيه أحياء فإن فيه الإسلام .. وفيه من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وتدل آخر الإحصائيات على أن عدد المسلمين في أنحاء العالم يزيد على ستمائة مليون مسلم ، وأنهم يوجدون في كل قارات العالم وفي مختلف الدول قاطبة وبلا استثناء على وجه الإطلاق . فهل وصل هذا العدد نتيجة لتناسل المسلمين ؟ لقد حرص المسلمون على أن يحجوا مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة

الوداع فشاهده واستمع إليه وتمتع بالحج معه مائة وعشرون ألفاً من المسلمين كانوا يمثلون قطعاً الجانب الأكبر من المسلمين .. فهل يبلغ نسل هؤلاء وأضعافهم بل وأضعاف أضعافهم ما يبلغه المسلمون الآن ؟ .. وهل نسل هؤلاء ينتج المصري والسوداني والليبي والعراقي والأردني واللبناني بل والأمريكي والإنجليزي والفرنسي والصيني والأندونيسي وكل أجناس العالم المختلفة ؟

فهذه الزيادة المطردة في عدد المسلمين الذين يدخلون في دين الله أفواجا وأفراداً في كل لحظة ألا تدل على شيء ؟ ..

وإن دلت على شيء .. ألا تدل على أن الله يؤيد هذا الدين ويحفظه ويناصره ؟ .

وإذا كان الداعي إلى هذا الدين وهو سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين . .

أفلا يكون بذلك محمد رسولا نبياً ؟ .

« إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلُّونَ علَى النّبيِّ يَأيُّها الذينَ آمَنُوا صلُّوا علَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

صدق الله العظيم .



كتب للمؤلف من منشورات
دار الكتاب العربي بيروت

الشهادة أول ركن من أركان الإسلام
صلاة الفريضة
صوم رمضان
فريضة الزكاة
فريضة الحج
تلاوة القرآن الكريم
الدعوة إلى الإسلام
الله والعلم الحديث
القرآن والعلم الحديث
الاسلام والعلم الحديث
المسلمون والعلم الحديث
القرآن والمجتمع الحديث
طريق الى الله
بين يدي الله
الرحمن الرحيم

الإسلام دين ودنيا
السماء وأهل السماء
يوم القيامة
القرآن والإنجيل ونهاية إسرائيل
الإسلام والزراعة
محمد رسولاً نبياً
اسرار وعجب
كيف .. ولماذا ..
اسئلة حرجة
بين الدين والعلم
دين وفكر
من الآيات العلمية
الصوم بين الدين والعلم
الحياة الأخرى
عالم الجن والملائكة
التصوف والطريق اليه